لَـكِنَّ اللهَ يَـدرِي

محبوبة محمد سلامة

***

الطبعة الأولى

هـ / ٢٠٢٣ م ١٤٤٤

عدد الطبعـات: الطبعة الأولى

رقـم الإيــداع: ٤٢٤٩ / ٢٠٢٣

الترقيم الدولي: ٥- ٩٩٥- ٢٧٨- ٩٧٧- ٩٧٨

التوزيع والنشر:

القاهرة - جمهورية مصر العربية

هاتف: ٠١٠١٢٣٥٥٧١٤ - ٠١١٥٢٨٠٦٥٣٣

E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

***

إهداء

مسكينٌ، يحسب أن..

الرفقةَ فَخٌ، ويعلَم كيف يُلَملِم أثره!..

يخفي صوته، يكتم عطره، يمشي وحده، يترك ذنبه..

حكايته بين الجماد دعاءٌ..

يا الله، بارك أجره*.*

*** * ***

لونٌ كالعسلِ..

ليس الأسود الذي يشبه رماد الحرائق، ومذاقه كالسُّكَّر المعقود، بل الأبيض الذي تلمحه عند مطلع إشراقة الصباح، ومذاقه كأوَّل فطورٍ تصنعه الأمهات بالعيد، على الرُغم من أني لا أعلم لمَ يسمَّى عسلًا أبيض، ولونُه في الحقيقة شفافٌ؟!..

ثُمَّ كأنَّما أُوقِدت جمرةٌ .. ولمَّا وصلَتْ لأقصى اشتعالها؛ أُلقيتُ فيه، فأضحى اللون كالذهب الخالص، إذن.. لوني كالعسل الذهبي؛ بل على العسلِ الذهبيِّ أن يُقارن أصَالةَ لونهِ بي!.

في بدايةِ اليوم كنتُ أنتظر خُطواتي الصباحية، والتي أعانق فيها أرض الجامعة الأمريكية، في قاعات المحاضرات هناك نفحةٌ ودٍّ عظيمةٌ تنشأ بيني وبين أحجارها، لا أملك كلّ مرَّةٍ إلا أن أقع في حبِّ كل زاويةٍ منها.. وكأنها لَمستيَ البِكْر لها!

ربما لم أكن هذا الصباح بأبهى حالاتي؛ لكنِّي.. كما أنا دائمًا..

أروع حذاءٍ قد تراه عين إنسان!.

لذا كان من الصادم لي جدًّا أن أتصبَّح بكيسٍ بلاستيكي يوضع على وجهي، ثُمَّ أُحشَر داخل صندوق مظلِم، ويستقر بي الحال في النهاية أمام مشفى حكومي في مكانٍ ما، وأنا لا أعلم ما الذي أتى بي إلى هنا، أو لماذا؟!

صباحٌ مُظلِم لا يشبه بأية حالٍ من الأحوال ما اعتدتُ عليه، ولن أفعل أبدًا!..

على الرصيف لساعاتٍ لا يهتم بي أحد، ضوء الشمس فوق رأسي يؤذي جلدي، أما كان لهم أن يغلقوا الصندوق؛ فلا أتأذَّى أكثر؟!

امتدت أخيرًا يدٌ تحرِّك محتويات الصندوق المجاورة لي؛ ثُمَّ في النهاية استقرَّت عندي، فُتِح الكيس وأمسكني بين يديه، كانت الأصابع خشنةً، كأنّما نُسِجَت خطوطها من سكاكين!..

أيُّ بائسٍ هذا الذي يحملني؟! وأيُّ بؤسٍ معه سألقى؟!*.*

وضعني على الأرض، أدخل قدمه الأولى؛ فأتى صوته راضيًا عني؛ لكني لا أرضى، قدمه فجَّة، وكأنها كومة فظاظةٍ وحُشِرَت فيَّ، كان لصاحبي قدمٌ أصغر من المعتاد في قياسات الرجال.. لكنه كان نظيفًا جدًا، أمَّا هذا...

أدخل قدمه الثانية، سار خطوةً.. خطوتين.. ثلاثة..

ولم يكد يأتِ بالرابعة حتى أدخل في القدم اليسرى مسمارًا!

مسمارٌ!! وأنا من أنا؟!..

ما الذي أعطى لمثل هذا الحق فيَّ؟!..

أفزعني الحال، فكأنّما شيءٌ في رأسي، أعتقد لو أنّي أعرف الصداع الذي يصيب البشر ويقلقل أفكارهم ويهيِّج أوجاعهم.. لقلتُ هو ذاك، توقعتُ أن ينزع منّي المسمار، لكنّه وبكل لامبالاةٍ أعادني إلى الصندوق دون أن يهتم بإزالة ما تسبب به!..

حسنًا، اكتفيتُ بساعةٍ واحدةٍ بعيدًا عن مالكي الأصلي، يكفيني اختلاط بمثل هذا، ولا أريد تجربة غيره، أريد العودة....

هُنالِك جاء أحدهم وحُمِل الصندوق إلى داخل المشفى، وأُغلِق عليَّ، فصارت ظُلمات من فوقها ظُلمات!..

* * *

لم يضعوني على الأرفف بطريقةٍ صحيحة، وجهي كان لداخل الخزانة، فلا أرى أين أنا، فقط أسمع أصواتًا، بجانبي بعض النِّعال..عن اليمين والشمال، أسمع همسهم عنِّي مَن حولي، لن أردَّ عليهم، لا أهتم بما يقولونه فهم دون مستوايَ على أية حالٍ، أحسنهم صناعةً.. لم أكن لأسمح له أن يمسح عني التراب في يومٍ عاصف، الآن يقف بجانبي كأنما الرؤوس تساوت!.

على أرضِ الجامعة كانت الأحذية برَّاقةً، والخطوات خفَّاقة، صنعتها رقراقة، وكنتُ بينهم مَلِكُهم، الأدقّ والأرقّ والأحقّ بكل تميِّز واهتمام، فكيف يكون هذا.. هنا.. مُستقرّ سكوني.. مقبرتي؟!..

صوت أنفاسٍ عالٍ يمزّق رتابة العالم من حولي، لا أرتاح له.. لا أرتاح هنا على أية حالٍ، الأنفاس تقترب ومعها طاقتي على التحمُّل والترقُّب، حُمِلتُ من جديد، لا بد لهذا التنقّل من نهاية..

هذا حذاءٌ رجالي؛ لن يفيدك. -

لكنه ليس كبيرًا كباقي أحذية الرجال، على كل حالٍ هذا ما أحتاج، فقدمي اليمنى منتفخةٌ قليلًا، وهذا الحذاء - سيسعها بحرِّية، أمَّا اليسرى فمجروحةٌ وملفوفة بالأربطة؛ يكفيني لها كيسٌ أربُطهُ حولها.

كان الحديث قصيرًا بين شابٍ يبدو من ملابسه أنه يعمل هنا، وبين سيدةٍ كبيرةٍ بالعمر، أظنّها محجوزةً بإحدى الغرف، عجيبٌ حال المرضى بهذا المشفى.. يأتون دون أحذيةٍ في أقدامهم!.. أيُّة حالٍ وصلتُ له، وأيُّ أناسٍ سألقى بعد؟! وبعدما كنتُ من نصيب الرجال، يمشون أسيادًا بين الناس، تنتعلني امرأة، أي هوانٍ وذلٍّ صرتُ إليه؟!..

جلست المرأة على مقعدٍ مزدوج بالزاوية، لا زالت أنفاسها تحارب الهواء لتخترقه، لا أهتم حقيقةً؛ لكن بدأ الصوت يزعجني، كانت الموسيقى الكلاسيكية أفضل أنيسٍ لي بعد يومٍ طويل من المحاضرات، الآن لا فكاك من أصوات الشهيق والزفير هذه! أقبلَت فتاةٌ ذات حذاءٍ خلّاب، بديعٌ رسمه، أنيقٌ لونه، مشية الأقدام فيه تحسبها ملَكيةً لا من عامة الشعب، اقتربت حتى جلسَت بجانب المرأة الكبيرة؛ فالتقت طرقاتنا، واجتمعنا!..

أخرجت الفتاة هاتفها وتحدَّثت فيه، كان صوتها يصلني بلا حياةٍ، وكأنَّما تردِّد شيئًا تحفظه وقد كررته كثيرًا حتى أتى كلامها كالآلة:

وقف (عَبدُ الخَبِير) مكانه لاهثًا بعد جرِّه كرسيًّا يساوي وزنه عِندًا، ويُكافئ ثِقله أملًا حتى وصل إلى حافةِ السور، ظهر كُلُّ شيءٍ أسفله حيث الطريق والناس مِنْ فوقهِ.. كصفحةٍ بيضاء يشوبها بعض البوح العابث؛ فظهرت الحروف غير مرتّبة والكلمات راقصة هاهُنا وهاهُنا! أمّا أعلاهُ حيث السّماء وكُلُّ ما يعشق فقد رآه.. حزينًا مُنهكًا، هكذا بدا السَّحاب.. مغلوبٌ على أمره، مهزومٌ دفاعه، غائرٌ جُرحه؛ ينزف دون انقطاعٍ!.

سكتت الفتاة أخيرًا، لا أفهم ما تعنيه كلماتها؛ لكن لا يستوقفني إلا نبرة صوتها، كلمات حزينة وصوت طبيعي لا يسكنه أيُّ تأثُّر.. كيف يجتمعان؟!

دقيقة وعاد صوت الفتاة من جديد تكمل حديثها على الهاتف:

قلتُ لك.. اسمه (عبد الخبير)، وليس (عبد البصير)، المصداقية مهمة هنا.. -

..... -

لا، لا أحد يعلم سبب الوفاة غيري، أنا رأيته بنفسي قبل أن يقفز. -

..... -

سأخبرك لكن بشرط؛ أن تكتب الفقرة التي قلتها لك بالضبط، وتقول أنَّ هذه كلمات الشاهدة على الحادث. -

..... -

لأني أريد أن أعرف رأي الناس في تعبيراتي عن الحدث، أريدهم أن يقدّروا قلمي. -

..... -

هذا أمرٌ مهم جدًا، من فضلك لا تضحك!. -

..... -

حسنًا .. حسنًا، لا تغضب، سأخبرك، لأنه كان وحيدًا، لم يرافقه أو يزُره أي إنسانٍ طوال مدة تعبه، وكان مرضه يسوء... -

..... -

اسمع، ينادونني الآن، اكتب كما أخبرتك وإلا لا أخبار حصريةً بعد اليوم!. -

أغلقت هاتفها وقامت من مكانها لتبتعد، وقبل أن أرى الحذاء المُدهش ينصرف من جانبي.. امتدت يد المرأةِ العجوز؛ فأمسكت الفتاة من كتفها وهي تحدثها:

لا تزيدي جراح الناس يا ابنتي بكلماتٍ كالسكاكين... -

لكن الفتاة أزاحتها عن كتفها بطريقةٍ درامية.. كأنها تمسح أتربةً علقت بها، ومضت مسرعةً دون اكتراث، وها قد ذهب الحذاء الأنيق الرقيق وصاحبته الفظّة! أيُّ عبثٍ هذا، حتى مُتعة النظر مقطوعةٌ هنا؟!..

عاد الهدوء إلا من صوت الأنفاس الثقيل، لا بأس ببعض الصمت، ففي ترتيب الأولويات فائدةٌ على كل حال، الهدف الأول، أبتعد عن البشر تمامًا حتى لو قضيتُ بقية أيامي في زاوية صمّاء.

الهدف الثاني، إزالة ذلك المسمار العالق برأسي..

لا.. لأجعل هذا الهدف الأول بسبب أهميته، فأنا أحتاج لإنسانٍ واحدٍ على الأقل كي يمدّ يده إليَّ وينتبه للمسمار؛ فينزعه عني، بعدها أبتعد عن البشر، وهذا سهلٌ، فما لا يعرفونه أننا نستطيع الاختفاء، شيءٌ من الظلام نعكسه على هيئتنا؛ فلا يرانا البشر، لهذا حينما يقول واحد منهم دعاءه: *اللهم ربَّ الضالة اجمع بيني وبين ضالتي*.. يفرض على هيئتي قدرة الله وينزع عني التخفّي، لذا.. مضمونٌ أمر الاختباء، لا يتبقى إلا أمر المسمار.

مضت ساعةٌ وكلّما مرَّ عليَّ ملأ من أُناسٍ أكاد أستنطق صمتي وأناديهم.. *انزعوا عني ذلك العجز برأسي!*.

لكن تغلب عليَّ مشيئة الله أنني جماد؛ فأخرس، هذه الأركان تستبقيني فيها، ولا يزال المكان يزداد وحشةً، العجوز تتأوّه من فوقي، لمَ لا تعود لسريرها؛ فترتاح؟!..

أقبَل رجلٌ وامرأة يدفعان سريرًا، مرَّا بجانبي؛ فقامت العجوز خلفهما حافيةً تلهَث.. عادت مسرعةً إليَّ؛ ارتدت فردةً وعلّقت الأخرى في عكازها، كانت قدمها أصغر مما أعتاد.. ولأن حظي اليوم أسوأ من لون الأرصفة؛ فلم تصل أصابعها لموضع المسمار، والآن فعلَت العجوز ما هو أسوأ، لقد ضغطت على الجزء الخلفي مني وثنته فجعلتني نعلًا وليس حذاء!..

كلُّ هذا حتى لا تُتعب نفسها وتدخل قدمها بصورةٍ أكثر إنسانية كأي شخصٍ يحترم الحذاء الذي يلبسه ويسير به ويعتمد عليه! تزعجني مشيتها، تسير بخطىً متمايلة متوجّعة خلف الرجل والمرأة.. ولا زالت أنفاسها أعلى صوت أسمعه بهذا المكان!..

بعد خطواتٍ عشر.. أدركتُ أن الأرض تضيء؛ لا.. ليست الأرض، بل خطوات العجوز، الأرض تحت أقدامها تضيء.. وكأن شمسًا مختبئةً في جوف كعبها، كل خطوةٍ تشرق، فإذا ما ارتفعت قدمها عن الأرض.. بدأ الضوء يخفت شيئًا فشيئًا حتى إذا ما استقرَّت قدمها على الأرض مرةً أخرى؛ أظلمت الخطوة القديمة تمامًا وأضاءت الخطوة الجديدة جدًا!

شيءٌ من الدفء يملأني.. ما هذا الذي يجري؟!.. دفء؟! بماذا أهذي؟

يبدو أن المشفى أصابني بمرضٍ ككل من فيه.

أنتِ بخير.. لا بأس عليكِ، والله ستكونين بخير. -

هكذا تحدّثت العجوز للمرأة النائمة على السرير، تمدُّ يدها ببعض المال للرجل الواقف وللمرأة معه، يأخذانه ويبتعدان...خطواتهما لا ضوء فيها!

تتقّل نظري حولي، هناك رجلٌ في الزاوية البعيدة يقف على رأس سريرٍ، خطواته تضيء، بجانبه فتاةٌ.. مظلمةٌ أقدامها، حركاتٌ سريعة لأشخاصٍ في منتصف الغرفة، البعض يضيء.. الكثير، لا، أتذكّر الجامعة التي مررتُ بها ليل نهار، هل صُنِعَت الأرض هنا من مادةٍ أفخم وأرقى مما صُنِعَت منها الجامعات؟!

كان شقّي الذي عُلّق بالعكّاز يرى وجه المرأة على سريرها، والعجوز عندها، تبكي الثانية على الأولى، وترفع الأولى للثانية رأسها، تسألها بفزعٍ:

ماذا سيفعل الألم بي يا أمي؟. -

كان الصوت لا يليق بالوجه، حروفٌ بنبرةٍ تشبه الأطفال!

سألتها العجوز بقلقٍ:

أتتألمين يا حَبَّة القلب؟. -

لا، وهل سأتألم كثيرًا؟. -

كان واضحًا أنَّ مفعول المسكن خدّر وجعها، أقبل رجلٌ تضيء خطواته، مدَّ يده حيث المرأة الراقدة وأمسك أصابعها برقّةٍ وانحنى عليها وقبّلها، التفتت إليه وأطالت.. فكأنما تجمع فكرةً في رأسها ثُمَّ صاحت بسعادة:

حسن)، ممكن أشرب عصير؟!.) -

أُحضرهُ حالًا. -

أشار للعجوز بيده وخرج، فتَبِعَته، وقفا بعيدًا عن الغرفة، كان الحديث بينهما مزعجًا جدًا، فما معنى أن لا أحد يعلم ما يحدث للمرأة ولا سبب مرضها؟!

أليس هذا مشفى؟! وما فائدة المنظار الذي أجروه لها على معدتها إذن إن كانوا لا يستطيعون إجابة أي سؤالٍ عن مرض المرأة؟!..

ازداد الحديث إزعاجًا أكثر لمَّا بدأت العجوز تبكي، والرجل..

ما هذا؟ يبكي؟! أيبكي الرجال هنا؟!..

أقدام العجوز لا تحملها، والدمع يسَّاقط منها كالمطر، هل يبالغ البشر هنا كلهم هكذا؟!.. تستند على كتف الرجل عائدين إلى الغرفة، تهمس له أو لنفسها..

حبيبتي ستنجو.. أليس كذلك؟*..*

يسكت الرجل، وكأن الدنيا حولهما بدورها تسكت، تسأل عن النجاة!

نجاتي مثلًا.. أن أخرج من هنا وأعود لبيتي الأول، أمَّا نجاة المرأة ففي بقائها معهم، ونجاة العجوز.. أعتقد.. في رفع مشقة ابنتها عنها، لا أعرف كيف تتعدد أشكال نجاة كلٍّ منَّا ولا زلنا نجتمع على نفس المعنى، كيف يقدّرها الله في عليائه بهذه الدقّة؟!..

ينجو الإنسان بكيفيةٍ تختلف من واحدٍ لآخر، والجماد بأخرى، والحيوانات بطريقة ثالثة، وغيرهم.. وكلّها في النهاية تُسمّى نجاة!..

لعلَّ لهذا عندما يضيق الحال جدًا بالإنسان مهما كان عظيمًا، في النهاية يرفع يده للسماء ويقول.. *يا ربِ، نَجِّني!*..

لا يطلب طريقةً ولا كيفيةً، فهو يعلم يقينًا أنَّ الله سيأتي بها على أفضل وجه، حسنًا، لستُ بشرًا لكن في رأسي مسمارًا وأخطو على أرضٍ لا أرتضيها، وكلُّ ما حولي كئيب.. فيا ربِّ، نجِّني!..

الناس من حولهم كلٌّ في شأنه، بين نائمٍ وقائم، فتاةٌ نائمة أسفل سرير، وتبدو أنها رفيقة أمها التي بأعلاه، لمَ لا تأخذها لتنام جانبها؟!

تتحدث أمها على الهاتف بصوتٍ عال:

ابنتك نائمة تحت السرير، طبعًا مرتاحة، وما الذي سيتعبها في نومة الأرض؟! وقد كان عليها أن تظل واقفةً أمامي تحسَّبًا لأي طلبٍ أطلبه!. -

وشيخٌ كهلٌ يخدِم ويُطعِم فتىً صغيرًا مريضًا، يمسح له، ينظفه ويساعده، ثُمَّ يقف تتخلخل قدمه التي تحمله، فيجلس على طرف السرير بجوارهِ؛ فيصرخ الفتى الجالس عليه، فيرتد الشيخ واقفًا، ثُمَّ تمضي دقيقة تئنُّ قدمه فيها أنين الزمن؛ فيجلس على طرف السرير في حذرٍ.. فيعود الفتي إلى صراخه، فيهتف زائرٌ عندهم لرفيقته، وأحسبه أبو الفتى وبجواره زوجته:

تعاملي مع أبيكِ هذا.. فما لنا ولكبار السن وحماقاتهم؟!.-

فترد عليه:

وهل ستأتي أنت لخدمة ابنك هنا؟! يكفي أنه يأتي كل يوم ليراعيه. -

فيتصرَّف الشيخ كأنّه لم يسمعه!

كل هذا والعجوز لا تبرد عينها ولا يتوقف الماء المالح منها، كانت المرأة نائمةً على سريرها، أما الرجل.. والذي ظهر الحال أنّه زوج المرأة، جالسٌ بزاويةٍ ينظر إلى يده صامتًا، لا يرفع عينه ولا ينتبه لأحد، قدمه اليمنى ترتفع بتوتر وتنخفض في مكانها، فيتحرك كعبه حركةً خفيفة؛ فَيَتأتى من تلك الحركة شررًا مضيئًا لا زلتُ أجهل معناه، لكن الاحتمال الأكبر برأيي أن الأرض تضيء تحت أقدام الطيبين.

دخلَت ممرضةٌ تحمل ورقة سلّمتها للزوج وهي تخبره:

أحضر هذه الأدوية الآن من فضلك. -

تقف جانب الزوج الذي لا زالت أقدامه تُنبتُ ضوءًا، أما هي فكانت خطواتها لا ضوء فيها حتى خرجت من الغرفة تمامًا!

هُنالِك دخل ثلاثة أشخاصٍ وساروا تجاه مكان جلوسهم، علَت أصواتهم بمجرد أن وقفوا أمام السرير:

نعتذر عن التأخير.. -

كنا نفط.... -

وكزه أحدهم في ذراعه فأخرسه، أكملت امرأة منهم:

المواصلات يا أمي كانت صعبة جدًا... -

فعلًا.. فعلًا.. -

والدخول للمشفى صعب كذلك. -

نظرت العجوز لهم وسكتت، سأل أحدهم:

هل أفاقت (سلمى)؟. -

أجاب زوجها:

قليلًا وعادت للنوم. -

ماذا قال الأطباء؟. -

هل ستُشفى؟. -

نظر له الزوج بغضبٍ صارخًا:

من ماذا؟ تُشفى من ماذا؟ وهل يعلم أحد ما بسلمى حتى يحددوا هل ستُشفى أم لا؟!. -

أتى سؤال الأول بنبرةٍ عجيبة، يسأل الإنسان أسئلته آملًا بالإجابة، أمَّا هذا فكان يسأل وكل صوته ينتظر أن يخيِّب أحدٌ أمله، كيف هذا؟ لا أفهم هؤلاء البشر!..

هتفت العجوز:

اهدأ يا (حسن)، ربنا يطمئنا كلنا عليها بإذن الله. -

أجابها الزوج:

لسنا كلّنا ننتظر الطمأنة يا خالة، البعض ينتظر شيئًا آخر!. -

ضربَت واحدةً على صدرها بأسلوبٍ تمثيلي وهي تهتف:

عيبٌ عليك يا زوج أختي.. عيب والله. -

هنا، قام الرجل والتفت للعجوز قائلًا:

سأنزل لأحضر الأدوية المطلوبة يا خالة. -

لم ينتظر ردَّ العجوز والتي نظرَت لأبنائها على إثر جملته، وأزعُم أنها كانت تنتظر أن يقوم واحدٌ منهم بمهمة الأدوية هذه؛ لكن ظلَّ الجميع بمكانهم، أما الزوج.. فلم ينتظر على أية حال، خطواته لا زالت تضيء، مع أنه كان غاضبًا، أما خطواتهم فكانت مظلمة.. أشرارٌ؟! لا أعتقد، لا يبدو الشرُّ أصيلًا فيهم، طيبون؟! ربما، لكن أقدامهم لا تضيء، مهما كانت حقيقة شأنهم، أقبل واحدٌ منهم تجاه العجوز، يبدو أكبرهم، مسح على رأس المرأة في سريرها وجلس جانبها والتفّ تجاه أُمّه وقال:

ليست قسوةً لو تعلمين، نحن فقط لم نستطع فهمها أبدًا، كنتِ وحدكِ الشخص الذي يفهمها ويتواصل معها، - صحيح كانت تتحدث حروفًا عاديةً لكن لم تكن مثلنا، جسدها أكبر من عمرها، وعقلها أصغر من شكلها، ونحن....

بدا أنّه يحاول اختيار كلمات أفضل مما خرج منه بالفعل، لكن لم يستطع؛ أنقذته أخته الواقفة بعيدًا، اقتربت قليلًا وأكملت:

ما يحاول أخي الكبير قوله.. هو أننا نفكّر بكِ أكثر مما نفكّر بـ (سلمى)، تعبكِ معها طول سنوات عمرها، - صبرك عليها، مشقّة التعامل مع نوبات غضبها وخوفها وقلقها، كل ما في الأمر.. أننا نتمنى لو يأتي الوقت الذي ترتاحين فيه.

لا أعرفُ شيئًا عن المواساة، لكن أهذه مواساة البشر لبعضهم؟!

لا تحزن.. غدًا يموت وسترتاح!*..*

بدت العجوز كأنها تتقبل كلماتهم، ظلّت ساكتة تنقل عيونها بينهم، كنتُ أظنُّ في الإنسان شيئًا آخر غير هذا، شيءٌ مُعجز، شيءٌ لطالما دفعنا نحن الجمادات أن نتمنى مكانهم، نحيا حياتهم، حسبتُهم يكافحون ليتقبل كلُّ واحدٍ منهم الآخر كما هو، أن يذكّروا بعضهم..

لا تكنَ غير نفسَك*.. *

في عالم يبذل قُصارى جهده عليهم ليلًا ونهارًا، ليجعل الواحد منهم أيّ شيء آخر، المهم أن لا يسمح لهم ليكونوا أنفسهم، وهذه أصعب معركةٍ على الإطلاق يُمكن لأيّ إنسان خوضها!..

كنتُ أرى أناسًا يُقابلون بعضهم؛ فيُشعِر الواحد منهم غيره بالسوء تجاه ذاته، يشتكون من غرابتهم وعدم قدرتهم على فهمهم؛ ثم أرى أناسًا غيرهم يقابلون بعضهم؛ فيُشعِرون الواحد منهم أنه دهشة تمشي على الأرض، وأن الغرابة التي تملأ تصرفاتهم هي ألطف ما فيهم، وأنَّ تعاملهم مع العالم ليس ساذجًا ولكن لهم طريقةً خاصة في كل شيء، وهذا ما يميزهم.. في الحقيقة أن الإنسان منهم هو ذاته لم تتغير، لكن يبدو أنَّ العيون التي تنظر إليهم هي التي تتغير وتنظر بما داخلها، كأنَّ الله قدّر من البشرِ بشرًا يرون غيرهم بعيون خُلِقَت مما خُلِقَت منه قلوبهم؛ فلا يرون إلا كل جميل، وحتى السيء.. فقد يخترعون له اسمًا، فيقولون ذات وَدَاعة..

اغفر لجمالك المنهوك بسير الحياة وظُلمها*..*

أو.. *مُرّ علينا بشقَّيكَ.. الأبيض والأسود؛ وكلاهما سنعانق*..

المهم أنهم يقبلون بعضهم كما هم، يرضون بهم دون زيادة، هؤلاء خلقٌ من خلق الله..

فسبحان الذي خلقهم.. وأحسن صورهم، أما الآن، أتخبَّط؛ وهو أمر لا يصحُّ أن أمرّ به، وأنا.. من أنا، حذاءٌ لا أكثر!.

كأنَّ أحدهم لملم الكلمات المهمات برأسه؛ فقال:

الأمر ليس بالسوء الذي تظنينه، فقط نودُّ لو تعود حياتك لطبيعتها قبلها.. قبل أن تكون هي محور الاهتمام - كله، والتعب كله، وكل الجهد لها فقط؛ فهي حتى لما تزوجت.. أخذتكِ معها لتخدميها، فهل هذا عدلٌ منها أو من زوجها؟!.

كانت العجوز تسمع وتسكت، كأنّما نَسيَت أنَّ في فمها لسان! لكنها فجأة قامت من مكانها وجذبت ابنها الأكبر من كتفه، ودفعته بوهنٍ وضعفٍ يليق بحال جسدها، مدت يدها تجذب غيره من إخوته في طريقها حتى جمعتهم كلهم أمامها خارج الغرفة، وقفَت أمامهم تستند على عكازها وتنظر لهم نظرةً تكاد تسيل منها الحمم وقالت:

صعب عليكم حالي، جهدي، مشقة ما أحمله، ولماذا لم تحملوه معي؟! -

الآن تقفون هنا وتقولون.. ليتها تموت فترتاحين!..

قاطعها أحدهم:

لم نقل هذا، عنيناكِ أنتِ، أن نراكِ بخير ولا تحملين كل هذا الهمِّ بعد اليوم. -

وهل طلبتُ منكم أن تحملوه معي أو تأخذوه عني؟! ما أنا إلا أمٌ رأت صغيرتها عاجزةً عن الحياة كباقي - الناس فأعطيتها حياتي.. حياتي.. حياتي أنا، وليست حياتكم، عمري أنا وليس عمركم، سعادتي... لا، ليست سعادتي التي أعطيتها لها بل كنتُ أسعد بها، سعادتي في مرضها كانت ناقصةً...

قاطعتها واحدة وهي تهتف:

بل كلنا أعطينا... -

والتفتت تنظر لإخوتها ليساندوها بالكلمات لكنهما صمتا فأكملت بنبرةٍ غاضبة:

جبناء! نعم.. كلنا أعطينا، لستِ وحدكِ، أعطيناها نحن من وقتنا الذي كان لنا عندك، ومن مالنا الذي كان نصيبنا في رزق أبينا، والوسيلة الوحيدة لنعيش حياةً أكرم وأفضل، كل هذا كان يُجمَع وفي بداية الشهر يُنفَق علي دوائها ومدرِّسيها وكتبها، كان الجميع يخرج ونحن نجلس بالبيت؛ لأنَّ صحة (سلمى) لا تسمح بالخروج، كنَّا نراها بخير لكن تصرين أنت أنها أضعف من أن تحتمل فتحرمينا حقنا في.....

صفعةٌ من يد العجوز أسكتت كلّ هذا الغضب المكظوم، كانت ابنتها كالعاصفة التي بدأت صغيرة فلمَّا وجدت الكون ينصت لها.. أخذَت معها كلُّ شيء، الصفعة التي نزلت ألجَمَت فمها؛ فارتدت على إثرها للخلف وعيناها تصرخان بمزيدٍ من الغضب والجرأة، على بُعد خطواتٍ كان الزوج يقف مدهوشًا، التفتت له المرأة بنظرة الغضب التي كانت على وجهها والتي تحولت لخجلٍ، ثم صارت نظرة كرهٍ تكاد تشعل النيران في كل مَن يلمحها، تحركت حينها من مكانها مُنصرفةً تجرّ لسانها خلفها والبقيَّة الباقية من عصفها في صدرها، وتبعها بقيتهم دون كلمة، لا أظن الفتاة تكذب، لكن لماذا آذت أمها الآن؟!

يقول البشر دائمًا.. *لكلِّ مقامٍ مقال*.. فهل كان هذا وقت الكلام؟!

لطالما رأيتُ مرور أناسٍ.. يعطي البعض منهم ثمار لسانه لا قلبه، ثمار يده لا عمره، فيمرون بلا معنى، أو عنوان، ثُمَّ لا يبقى منهم شيءٌ....

إلّا مَن أحيا في كلمته نبضة صدقٍ من قلبه، ومَن مرَّر في لمسته دقيقة ودٍّ من عمره، هؤلاء وحدهم يبقون.. للأبد، بل أحسبهم أكثر إنسانيةً من غيرهم.

ظلّت العجوز واقفةً مكانها ثابتة لا تميل أو حتى تتنفس، مرُّوا جميعًا بجانب الزوج وعبروا الممر كلّه في دقائق، وقد اقتربوا من بعضهم في شيءٍ من مواساة صاحبة الصفعة، يُشبهون انسحاب العواصف عن الأرض بعد هيجانها وقد جمعَت معها حبات الرمل والحصى، وما إن اختفى أثرهم عن المكان حتى انهار ثبات العجوز، فعاد صوت أنفاسها يعلو، وقدمها تميل رغمًا عنها.. حاولتُ أن أكون لها عونًا وتمسُّكت بالأرضِ ما استطعتُ لكن غلبني ضعفها، كادت تقع لولا أنَّ زوج ابنتها كان إليها أسبق؛ فأقامها..

سار بها بضع خطواتٍ حتى وجد كُرسيًا لها وأجلسها عليه، كانت الدموع تسقط منها على رأسي، مياهٌ ساخنة، انتبهتُ لتساؤلٍ لم أفكّر فيه من قبل..

إن كان الدمع ساخنًا هكذا؛ فكيف العين التي أخرجته؟ كيف الروح التي أنتجته؟ وكيف القلب من ورائهم جميعًا؟!

جلس (حسن) بجانبها ساكتًا، قالت له من بين دمعها وشهيقها:

ليسوا بهذا السوء والله.. هم فقط... -

أسكتها بحركةٍ من يده وقال:

لا حاجة لمثل هذا الكلام يا خالة، أعرفهم وأعرف قلوبهم، سيعودون.. لا تحزني. -

وكأنّما كلمة (لا تحزني) فجّرت ينابيع البكاء التي في صدرها كله، فتهدّج صوتها وعلا نحيبها وهي تهتف له:

لا أريدهم أن يعودوا، كيف أنظر لهم وهم يحسبوني ظلمتهم؟! -

يرون أن أختهم حرمتهم مُتعة الحياة والنعيم؟!

يا بني، أخبرني.. ما حيلة الإنسان في مرضه؟!

لا شيء يا خالة والله. -

فمسحَت بطرف كُمِّها دموعها كأنها طفلةً تُمسِك نفسها عن البكاء والاختباء بصدر أي كبيرٍ حانٍ، أكملت:

وهذا ما قلته لوالدهم الله يرحمه، هنعترض على قدر الله يا (سيد الناس)؟! ربنا بيختبرنا.. أعطانا ثلاثة - بخيرٍ وواحد معطوب؛ هنرجعه؟!.

يومها صرخ بيَّ وقال:

استغفري يا (ست البنات)، استغفري قبل ما نتكتب من الجاحدين. -

ابتسم (حسن)، ووضع يده على يدها وهمس:

سيد الناس) و(ست البنات).. جميل دلال المحبين هذا!.) -

أخرجتها كلماته من بكائها وقالت بعد صمتٍ قصير:

كان كلُّ كلامه جميل، يومها لما عرَفنا أنها مريضة كانت تمّت عشر سنين، فوضع معي خطةً أن يكون - عمله الصباحي للبيت والأولاد، سيبحث عن عملٍ آخر للمساء وسيكون لها وحدها، كان كل التعب عليه.

وأنتِ يا خالة.. كنتِ كذلك تتعبين. -

أنا كنتُ لهم كلهم، النهار مع الثلاثة، والليل مع (سلمى)، أما هو.. فكان يجلس بجانبي، يمسح على رأسي - ويقول:

يعزّ عليَّ حزنك يا ست البنات!*..*

كان يقويني، ولما أقوم من جانبه، أخرج.. أسمع صوته يبكي من وراء الباب، كان حتى حزنه يخفيه عنِّي، وأنا كنت أبكي في كل مكان وطول الوقت.. كتم البُكا عذاب يا ولدي، والدموع اللي تنزل على حبايبك عُمر الأرض ما تبلعها ولا تسمح لها الشمس تنشف، وهو كان شَايِل همّه بقلبه وساكت، كان أكثر واحد فينا تعبان!.

حينها قام (حسن) ومدّ يده إليها، فقامت تستند عليه، وعلى عكازها، دخلا الغرفة حيث كانت (سلمى) لا تزال نائمةً، فأوصل العجوز إليها وخرج، لعلّه ذهب يوصّل الأدوية للممرضة، جلست هي بجانب رأس ابنتها، انكشفَت قدم الأخيرة؛ فقامت تغطيها، انزاح الغطاء فقامت إليه، ثُمَّ انزاح؛ فقامت، وكلُّ مرَّةٍ يشق الألم في قدمها شقًّا أكبر من الذي قبله!..

عادت لتقوم من مكانها لُتطفيء المصباح، تقلَّبت (سلمى) في فراشها وهي تهمس:

ما هذا البرد؟*.*

فاتجهَت العجوز للنافذة واستأذنت من باقي المرضى لتغلقها، رجعت لتُدفئها، تُضمَّها إلى صدرها وتلفَّها بالغطاء..

لم تتحدَّث العجوز بكلمة.. لكن قدمها كانت تصرخ من الألم، سخونةٌ شديدة ونبضٌ سريع، والميل في مشيتها زاد كثيرًا حتى لكأنها ستقع، أجدُ في استقرارها على السرير الآن بجانب ابنتها أرحم الأمور بها على الإطلاق.

جاء الطبيب، فاعتدلَت وهي تنوء بضعفٍ وتضم شفتيها في حرصٍ أحسبه حتى لا تتفلَّت منها الآه!..

قامت إلى الطبيب، طلب أوراق (سلمى)؛ فذهبَت تطلبها من الممرضة، كانت قدمها تدكّ الأرض وجعًا، تضربُ على رأسي بصوتِ عظامها، من قال أن العظام لا حديث لها وأنها ساكتة فهو كذاب، هذا الجسد يئن، كلُّ عضو فيه يصدر صوتًا من وهن، وأنينًا من رجاء، كأنهم يستجدون عفو العجوز ورحمتها لنفسها.. فتنزل في النهاية رحمتها عليهم؛ لكن مما أرى.. فهذه العجوز لا تستمع لشكوى أحدٍ غير ابنتها، تهبها نفسها كلها، صحتها، صبرها، قوتها، ثباتها!..

ظلّت الخطوات تضيء، حتى وهي تسير مبتعدةً عن غرفتها، لا زال كل ضوء منها يشرق ويغرب على أرض المشفى كمعجزةٍ حيَّةٍ، وددتُ لو استطاع البشر رؤيتها وتفسيرها لي، عادت العجوز بالأوراق، شهيقها ينبيء باختناق صدرها، ليت أحد الأطباء ينتبه لهذا الصوت الخارج منها.. ليت...

ما هذا؟ منذ متى بدأتُ أنا بالاهتمام والتمنِّي؟! ولأجل من؟! لأجل هذه؟!

وصَلَت لغرفة ابنتها، كانت الخطوات الآن أشبه بالزحف، حتى عكازها ويكأنه يصرخ طلبًا للمساعدة، عادت عيونها تمتليء عجزًا ساخنًا، الأقدام تمرُّ من جانبها، لا أحد يقف لها، لا أحد ينظر تجاهها؛ كأنَّ المعتاد هنا هو الوجع والانهيار، لا القيام والانتصار!

تماسكي.. أرجوكِ!*..*

كنتُ أصرخ بها لها، لم تسمعني؛ لكن كأنّ قدمها سمعتني، لا زالت تُعينها، حتى السرير، تماسكت العجوز ثُمَّ صرخت من خيبة الأمل، لعلَّ السبب أن بعد كل هذا التعب.. الطبيب لم يعد هناك..

لا، بل لأن (سلمى) لم تكن هناك!.

* * *

أعرفُ عن الدنيا ذَهاب مُتَعِها.. **

يومًا ما أحضر صاحبي مُلمِّعًا أنيقًا، وضعه على جلدي، حرّكه برقَّةٍ ولطف، يمسحني به رويدًا رويدًا، وأتشرَّبُ أنا رائحة المُلمِّع وفخامته في حِفظي وتزييني، ينمو أثره وعنايته عليَّ مرةً بعد مرة، كلَّ يوم كان هذا هو روتين الحفاظ عليَّ من العبث والهلاك، ودام تَمتُّعي بتلك الفخامة من حياةٍ فترةً حتى نفد المُستَحضَر تمامًا؛ فبُدِّلَ بواحدٍ لا يكافئه في الجودة من قريبٍ أو بعيد، وعددتها إهانةً شديدة على كل قطعة منِّي، حينها أدركتُ أني فقدتُ أجمل مُتعةٍ قد تمرُّ على حذاء.. وكانت تلك أتعَس أيامي عند صاحبي..

وأعتقد أن شعورِ العجوز الآن هو ذات الشعور الذي جربتُه؛ لكنّي لم أفقد ثباتي كما تفعل هي.. ملقاةً على الأرضِ مدهوشةً صامتة، وصل زوج (سلمى) فأقبل عليها ملهوفًا ورفعها عن الأرض حتى السرير، هنا تكلّمت وسألته:

أين سلمى؟!. -

سأذهب لأعلَم، لن نفقدها، لا تقلقي.. لا تقلقي، خرجتُ فقط لأحضر لك نَعلًا طبيًا لقدمك. -

وضع أمامها نَعلًا كبيرًا وغادر مسرعًا، أمّا العجوز فظلّ وجهها جامد الملامح، لا يتغيَّر، كنتُ أتتبّع صوت أنفاسها..

حتى هذه لم تعد تُسمَع، لولا أن صدرها يعلو ويهبط لقلتُ أنها ماتت!

كانت الأقدام بباقي الغرفة ساكتةً ساكنةً، وجوههم كلهم على العجوز، أعينهم تراقبها وأنا أُراقبهم، عينها زائغة حتى تحسبها ليست في عالمنا...

وكالرعد في فجأته نطَقت العجوز بصوتٍ جامد:

ضاعت منّي مرةً من قبل. -

تحرّكت أقدامهم تجاهها، كانت خطواتهم في البداية مظلمة، يُقبلون واحدًا وراء آخر، ثُمَّ كلَّما اقتربوا من العجوز أضاءت الأرض من تحت أرجلهم!

زادت حيرتي الآن.. بل عظُمَت!

كنا عند طبيب العيون ننتظر دورنا.... -

العجوز تُكمِل حكيها بنفس الحسِّ الجامد الخالي من الحياة، لا شفقة في عينها، ولا رجفةَ في صوتها ولا ألم في صدرها، كأنّها آلة!

كانت على قدمي.. جسمها صغير، أستطيع حملها اليوم كله دون مللٍ، تجلس داخل قلبي والله، احتضنتها.. -

كتفها دافيء، وصوتها وهي تدندن: *أنا أنا أنا.. أبريق الشاي*.. زاد النعاس في عيني، وكنت لم أنَم من أيام؛ فسقطتُ فيه من غير أن أشعر، انتبهتُ بعدها لرجلٍ يضرب على كتفي والرؤية في عيني شبه مظلمة،

يسألني عن دوري في الكشف، نظرتُ حولي.. في كل مكان، لم أجدها!.. صرختُ وأنا أجري.. أبحث في الحمام، على السلّم، فوق سطح العيادة، داخل كل دولاب وتحت كل كرسي...

مددتُ يدي إلى عباءتي أفتحها من أعلاها .. أنظر داخلها لعلها فيَّ، لعلها عندي، لعلَّها عادت إلى قلبي..

أُنادي.. *سلمى.. ردي، أنت هنا؟!*..

كانت يدها مضمومةً على ملابسها أمام الجميع، وعيناها متسعةٌ لآخرها وصوتها يصرخ وينادي، تحسبها تعيش الفزع من جديد، عالقة في الماضي!

مدت سيدة بجانبها يدها إليها، تهزّها من كتفها...

يومها قالوا لي: *الأمومة لها أهلها.. وأنت لستِ من أهلها*..عوتبتُ من كل إنسان، حتى الشجر والحجر - كان يصرخ فيَّ: *يا مهملة!*. وأنا.. أنا حياتي كلها لها، لكن لم يرَ أحدٌ إلا ضياعها، حتى قلبي كان ضائعٌ معها.. ممكن تبحثوا معايا عن (سلمى)، هي كفيفة يا حبّة عيني!..

قالتها وانفجرت بالبكاء، الآن كلُّ ما كان مكتومًا.. تحرَّر، امرأةٌ قريبة منها غلبتها العبرات فتراها تحاول التماسك، في النهاية أخذت النَعل الذي تركه زوج سلمى وجلست على الأرض تضعه بقدم العجوز وتخلعني عنها...

الفزع والقلق المرسوم على وجه الجميع حيَّرني! هل يُشفق الإنسانُ على إنسانٍ لا يعرفه؟!

انتبهتُ حينها أن كلَّ خطوةٍ على الأرض منهم تضيء، الآن الآن أحسبني فهمتُ سرَّ الضوء، حتى الأقدام تفضح حقيقة البشر وسرَّ حضورهم، فمن كانت خطواته لغيره في زيارة.. أضاءت من تحته، ومن كانت خطواته لنفسه؛ أظلمَت!..

على باب الغرفة وقف (حسن)، يلملم أنفاسه ويستند على الحائط وينادي..

يا خالة...-

حينها نادت السيدة التي على الأرض لأحد الصبيان وسلّمتني له وقالت:

خذ هذا الحذاء واذهب به بسرعة للممرضة، وأخبرها أن تعطيه لأي محتاج. -

ماذا؟!!! ما هذا؟! أين يذهبون بي؟!

انتظر يا ولد، انتظر، أنا هنا معهم، أنا مع (سلمى).. ماذا عن سلمى؟!!

كان الولد يجري بي إلى الخارج، و(حسن) يُسرِع إلى العجوز بالداخل، وأصرخ أنا بينهما، لعله يخبرني قبل أن أذهب.. *أين سلمى؟!*

لكنه انطلق بي على أية حال!..

* * *

لم أجرّب الغضب أبدًا لكن أحسب أنَّه الآن ما أمرُّ به!

أذكرُ في الجامعة يومًا حضر صاحبي درسًا لم يعجبه، كان درسًا شاذًا عن كل ما مرَّ به من دروس، تكلّم المُحاضر فيه وقال..

الرضا كما تعلّمنا من زمن.. هو سكوت القلب تحت مجاري الأحكام*..*

الآن وفي هذه الساعة.. جرَت عليَّ الأحكام كالبشر تمامًا، ومطلوب منّي الرضا، أرضى بالجهل! ربما لم أكن أهتم في البداية لأعلم ما يحدث، لكن الآن أريد معرفة ما يدور، أين ذهبت الفتاة العمياء؟

هل ستُحرَم منها أمها؟ لن تتحمل العجوز.. لن تفعل!

وهل انتهى الأمر هكذا؟!

جمادٌ لا يملك رفاهية التتبع والحرية والسؤال، لا اعتراض على قضاء الله فيَّ، في الواقع لم أكن لأنزعج من قبل، لكن يبدو الآن أن شيئًا نزل بي، أصابني بضعفٍ، ولا زال يفعل.. كهذا المسمار العالق برأسي دون مهرَب..

على عتبة غرفةٍ مجاورة أسقطني الصبي في الأرض وفرَّ مسرعًا،

ما ضرَّهم إذن لو كانوا تركوني هناك حيث كنت بجانب العجوز ولا زيادة؟!

كانت السقطة تزيد المسمار غرسًا في رأسي، الأقدام هنا مختلفةٌ عن هناك، هنا مجلسٌ غريب، امرأة تقف في زاويةٍ تتحدّث عن الله والخلق، والناس تسمع ويبدو أنها تقرأ شيئًا من هاتفها على أسماعهم...

عرفتُ منذ أعوامٍ صديقةً لي كانت من أكثر الناس حرصًا على مالها، لا أظنني رأيتُها يومًا تنفق جنيهًا * على رفاهيةٍ قد تعود عليها بمتعة مثلًا أو سعادة مؤقتة، كانت دائمة التفكير.. هذا المال حصلتُ عليه من سهرٍ طويل.. وهذا المال جنيته من تعبٍ ثقيل؛ وهكذا... تبخل على نفسها فقط وليس على أحدٍ، لا تحب المغامرة أو التجارة وتكره الخسارة، فكنتُ أقول لها كلّما جاءتني الفرصة..

من سيكرم الإنسان بعد نفسه؟!*

إن كنتِ لا ترين في نفسكِ حقًا عليكِ؛ فهل سيرى الناس لكِ حقًا؟!*

وعلى الرُغم من هذا.. كانت حقًا مستورةً من الدنيا وغدراتها، لم أرها يومًا إلا سعيدةً بما لديها، راضيةً، لا توفر جهدًا ولا وقتًا على أحد، بقيتُ في حيرة منها حتى أتى يوم..

انتبهتُ أنها كانت تقرض الناس دائمًا المال، كل من أراد قرضًا حسنًا ذهب إليها، وتَصبِر بالعام والعامين على مالها حتى يعود، بلا زيادة، بلا فائدة، حتى أتى اليوم الذي قالت لي فيه ذات بوحٍ..

هذه تجارتي مع الله، وحدها التي لن أخسر فيها* *

توقفتُ كثيرًا عند كلماتها، فكرتُ.. الإحسانُ وجهٌ من وجوه العمل الصالح، وجزاء الإحسان يأتي على الوجه الذي يقدّره الله ويرضاه، لكنه لا يجب أن يأتي بحسابات عقولنا وأفكارنا.. حينما نتفكّر في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: *صنائع المعروف؛ تقي مصارع السوء*.

يهتف العقل.. ما علاقة صنيعة معروف مع إنسان.. بالموت؟!

لكن الحقيقة أنَّ كل صنيعة معروف.. سترٌ من الإنسان لأخيه، فيسترنا الله في النهاية، وكنتُ أعلم من زمن قصة الفتاة التي ظلّت وحدها تبكي في موقف الحافلات وهي ترتجف، حتى وقف أمامها حارس المحطة وعلِم ضياع مالها؛ ففعل معها ما يمليه عليه دينه وإنسانيته، ثم يعود الرجل لبيته بعد يوم أو اثنين وقد دبَّر المال الذي سيدفعه للمدرسين؛ ليبدأ أولاده دروسهم، فيسمع من أطفاله أن هذا نجح في امتحان الرياضيات، وهذا فهم أخيرًا درس النحو الذي كان يكره اللغة العربية كلها بسببه، ويخبرونه أنه لا حاجة للدروس، فيقول في نفسه..

يا رب، ماذا فعلتُ لأستحق منك هذا الجَبر؟!**

وقد نسيَ وقفته أمام الفتاة الباكية من قبل، لكن الله لا ينسى!

في قوله تعالى.. (هل جزاءُ الإحسانِ إلَّا الإحسَان)**

ثقةٌ ويقين أن لا شيء يضيع، ولا ضرورة أن يردَّ الله علينا إحساننا في نفس الموضع، فالستر نرجوه في كل موضع.

وأذكر جيدًا طفلًا في العاشرة كنتُ أحفِّظه بالمسجد، وكان جميلًا رقيقًا، لا يحبُّ الخوض فيما لا يخصه، في يوم طلبتُ منه أن يحكي لي شهادته في مشكلةٍ حدثت بين رفقائه في الحلقة؛ فأقسم لي أنه كان ساكتًا بجانبهم، يشغِّل عقله في التفكير بمطبخ أمه وماذا ستصنع على الغداء، حتى لا يسمع حديث أحد لا يصح له سماعه، يومها تعلَّمت منه درسًا جميلًا جدًا في الأخلاق..

مضت الأيام وفي طريقي للمسجد وقف أمامي رجلٌ يبيع خيطًا ومعه الإبرة، لم أكن أحتاج الخيط لكن مع ذلك وقفتُ واشتريتُ وصعدت للمسجد، بدأنا الحلقة وأتي الأطفال وكان فيهم الطفل الرقيق، وقف عندي وهو يتلفّت حوله وقال في أذني بخجلٍ ودموعه تسبقه:

تمزّق بنطالي من الخلف وأنا أصعد على السلم، سينكشف كل شيء.. كيف سأتصرّف؟!. -

فتحت حقيبتي بسرعةٍ لأتأكد أنَّ الخيط الذي اشتريتُ معي؛ نظرتُ له بصدمةٍ ودموعي تنساب في صمت.. لم أنتبه لنفسي إلا وأنا أعانقه وأقول له:

مستورٌ أنت يا فتى والله.. مستور!.-

ذهبتُ به إلى الحمَّام، خلع بنطاله وأعطاه لي، وانتظرني حتى خيطتُه له وأعدته.

هذا الطفل كان يستر أصحابه ولا ينظر لعيوبهم حتى لا تقع في نفسه؛ فكيف عامله الله؟!

ستره كما سترهم، وجزاه بإحسانه إحسانًا.. في مجتمعاتنا مثلٌ قديم يقول..

اعمل الخيرَ وارمِه في البحر*..*

كدلالة على أن الخير نفعله ولا ننتظر الجزاء عليه، لكن الحق علينا أن نقول..

اعمل الخيرَ وازرعه بالأرض*..*

فيخرج ثمرًا مختلفًا ألوانه فيه نفعٌ للناس، الحديث عن الإحسان طويل كالطول بين السماء والأرض، والقصص التي نستشهد بها كثيرة كعدد البشر أجمعين، والموضع والمكان هنا يضيق علينا الحديث.. لكن أؤمن أنَّ المعنى قد نزل في النفوس ووجد موضعًا يعبد فيه الله.

انتهت المرأة من حديثها؛ فكأنَّما كانت النساء نيامًا وانتبهن، شيءٌ ما كان فوق رؤوسهن، يحيط بهن من كل جانب، ينزل عليهن جميعًا، أعينهن وأُذنهن، شفاههن وأعناقهن، أكتافهن وأيديهن..

ينزل عليهن ويأخذ معه ظلامًا كان مختبئًا فيهن!

يظل يتحرك للأسفلِ حتى يصل إلى الأرض فتبتلع ما خرج منهن!

تتبعتُ هذا الأثر ربما يصل إليَّ مثلهن؛ ولعلّه يأخذ ما يؤذيني.. فيُخلّصني من المسمار، أو يكون في طيَّاتهِ سرٌ آخر لا أعرفه.. وينفعني، لكن الأثر اختفى مع ذهاب النساء من الغرفة الواحدة تلو الأخرى، حتى انفضَّ الجمع كله.. والذي لم تكن أيُّة خطوةٍ من خطوات النساء فيه مضيئةً.. كل الأقدام مظلمات!.

شابةٌ منهن، والتي كانت تقرأ لهن من هاتفها منذ قليل، وقفت مكانها تبحث عن شيء، نادت بعد دقيقة:

يا بنات، رأيتنَّ حذائي؟ -

لم يجبها أحدٌ، فتلفّتت يمينًا وشمالًا، ثُمَّ وضعَت قدمها فيَّ وانتعلتني، لقدمها ملمسٌ ناعم لم أعتده من قبل، أكثر نعومةً من قدم صاحبي، والعجوز كذلك، في جريان الدم داخل عروقها رقَّة أشعر بها، خطواتها أقل حدَّة، وحركتها بها ليونة...

سبحان الذي خلق البشر من طينٍ واحد وجعل في صنعتهم عجيب الاختلاف!

تحمَّلتُ وجودها لحين شعورها بالمسمار ونزعه، كانت أصابعها أطول قليلًا من العجوز، سارت بي خطوةً؛ فتألَّمَت، رفعتني قرب وجهها وهي تنظر لموضع المسمار، وبدلًا من أن تنزع مني ذلك الطفيلي العالق بي.. أعادتني إلى الأرض ثانيةً وضغطت بقدمها من فوقي بقوةٍ فجعلَته يشقّ طريقه بي أكثر، ثُمَّ انتعلتني من جديد وسارت بي في الاتجاه المغاير تمامًا لغرفة العجوز!.

* * *

كلُّ الفتيات تسير باتجاهٍ مختلف، دقائق واجتمعنَ من جديد بعد تغيير ملابسهن، كنّ بزيّهن الأزرق المُوحد؛ فأدركتُ حينها أنهنَّ ممرضات، مدَت الفتاة التي تنتعلني يدها حيث جيبها؛ فأخرجت سماعةً طبية ولفَّتها حول عنقها وأمسكَت جهاز قياس الضغط وتحرّكت..

غرفةٌ جديدة وأشخاصٌ جدد، وتأوُّهات من كل جانب!..

الحياة هنا شاقّة، والآلام غير مألوفة، وكلّهم مرضى بوجعٍ يسلبهم العافية، لا أدري كيف يعمل الأطباء دون تأثر.. أليس في صدورهم قلب؟! كيف يستمرون؟!..

يتسلل شيءٌ ما إليَّ هنا كلّما طال مكوثي، يصيبني بضعفٍ على ضعف، لا وصف له إلا أنني قد أكونُ مريضًا كالبشر!

لا أريد الهرب، لكن أتمنى السلام، أن أُترَك في صمت، هذه البيئة لا تصلح لي.. لا تصلح لمثلي، لا أعرفها ولن أعتاد.....

ماذا الآن؟ ما هذا؟!!!

وكأنّ حريقًا صُبَّ فوق رأسي، ورائحةٌ سيئة تنفد إليَّ وتملأ المكان من حولي؛ فتزيدني فيه كُرهًا على كُرهٍ، وها هو رجلٌ مُسنٌ أحمق.. أفرغ كل ما بمعدتهِ على رأسي!!!

حقًا.. صار هذا المكان لا يطاق!

آسف.. آسف.. والله آسف!. -

كان رجلًا هرمًا كبير السن يهتف بها، لا أدري لمن، لكنه ظلّ يقولها دون توقف، أعادته الممرضة لمكانه وخلعتني من قدمها بهدوء؛ فجذبني من يدها شابٌ بسرعة قد أتى من أحد زوايا الغرفة وهو يستأذنها في تنظيفي، حاولت الممرضة أن ترفض لكنه كان مصرًّا، وخرج مسرعًا يحملني معه إلى الحمام ربما.. كان هو ما توقعتُ، وبكل غباء العالم.. وضعني أسفل الماء! أحمق!..

ما يزيد عن الخمس دقائق ظلّ يغسل فيَّ حتى أفسدني، ومع ذلك لم ينتبه للمسمار!!..

عاد بي للغرفة؛ لكن الممرضة لم تكن فيها، فوضعني على الأرض جانب السرير وجلس على طرفهِ، كان الرجل الأول لا زال يهمس:

آسف!*.*

وهو يجمع يده إلى صدرهِ ويغمض عينه، ويضم قدمه كذلك قُرب بطنه، كان مشهده عجيبًا وحزينًا في آنٍ!

اقترب الشاب منه وأخذه إلى صدره وهو يحدثه:

حصل خير.. حصل خير، انظر.. الحذاء عاد نظيفًا، مضى الأمر. -

لا زال الرجل مختبئًا داخل نفسه، فضمّه الشاب أكثر وكأّنما يجمعه جمعًا، يشدّ عليه بيده ويهمس له في أذنه همساتٍ لا أسمعها، يُبعِد رأسه عنه وينظر له ويسأل..

ها!-

فلمَّا لا يجد ردًّا؛ يعود لأذن الرجل فيهمس فيها من جديد ويطيل الكلام، يرفع رأسه عنه وينظر لوجهه ويعود لسؤاله..

ها.. هيا.* -

ينتظر دقيقة والرجل لا زال مكوَّرًا فيه، فيرتد ثانيةً إلى أذنه ويوشوش له وشوشةً ضاحكة هذه المرة..

تبدأ الابتسامة تشق طريقها لشفتي الرجل.. وقدمه تنفرد قليلًا قليلًا، ويده تنبسط بهدوءٍ وخوف، وآخر ما يفعله أن يفتح عينه وابتسامته على وجهه تتسع، قال الشاب بحماس:

وكما وعدتُك.. أشهى كعكة برتقال توصل لك الآن!. -

صفّق الرجل بيده كالأطفال من سعادته، وقال:

لا.. انتظر حتى يأتي ابني وأحضرها وقتها ليأكل معي. -

من عيني. -

أنت ولدٌ مؤدَب، أين والدك لأشكره على تربيتك يا بني؟. -

أجابه الشاب سريعًا:

أخذه الأطباء للكشف عليه وإجراء بعض الفحوصات وسيعود في المساء. -

على خير يا ولدي.. على خير. -

سكتا، طال الوقت، مدّ الرجل المُسنُّ يده إلى بطنه يمررها عليها ويسأل:

هل وزعوا الإفطار؟ -

عجيبٌ أمره، يسأل عن الطعام وقد تقيَّأ منذ قليل!!

كان الشاب يبتسم للرجل وهو يهبُّ إلى حقيبته ويخرج منها فطيرةً، ثُمَّ يقفز إلى السرير ويعقد رجليه أمامه، يمسك الفطيرة وينحني قليلًا للأمام مُحدثًا الرجل بصوتٍ غير عال:

هذه الفطيرة كانت لأبي وهو لا يريدها، وأنا لم أفطر، نأكلها معًا.. ما رأيك؟ -

ازداد الرجل انحناءً على الشاب هو الآخر وهمس له:

وماذا لو رجع والدك وسأل عنها؟. -

لن يفعل، صدقني، فهو لا يحب الفطير. -

اقتنع الرجل بكلام الشاب، مدّ يده واقتطع من الفطيرة قطعةً، وبدأ يأكلها بنهم، كان واضحًا أنه جائع، والشاب يمازحه في حكايةٍ مثيرةٍ عن شكل والده لما عرف أنه أحضر له فطيرة بدلًا من شطيرة سجق، وكاد يقتله من غيظه، انتهيا من الطعام فقال الرجل بودٍّ ويده تتنقل بين ملابسه يبحث عن شيء:

تشرب شاي يا ولدي؟ -

قالها ثُمَّ بدت على وجهه نظرة إحراج تبعها صمت، حينها ضرب الشاب على جبهته وقال معتذرًا وهو يمدّ يده داخل جيبه ويخرج مالًا:

آسف يا حاج، نسيتُ مالك معي لما ذهبتُ لأشتري لك الدواء الذي طلبوه بالأمس!. -

نقل الرجل نظره بين الشاب والمال، فقال الثاني ويده تشير لحقيبة دواء أعلى السرير:

ها هو الدواء خلفك. -

التفت الرجل خلفه، ولما اطمأنَّ للحقيبة من ورائه، مدَّ يده إلى الشاب وأخذ المال ووضعه بجيبه، فتنحنح الشاب بخجل وقال:

الآن ممكن تعزمني معك على الشاي لأني لا أملك أي مال، كله مع والدي. -

ضحك الرجل على مظهر الشاب وهو يطلب فزاده كيدًا:

أنت فقير إذن في غياب والدك!. -

بل مُعدَم يا حاج والله. -

قالها الشاب مؤكدًا وصوت ضحكهما يطوف بالمكان.

من الأسفلِ يبدو كلُّ شيءٍ مبهمًا، لا أستطيع رؤية الوجوه والملامح؛ لكن يمكنني أن أرى الأقدام وحدها، وفيها يظهر الإقدامُ والإحجام، فهذا يقبل وذاك يُدبر، وبينهما من يبقى ممسكًا لا يُفلِت، أمّا الضوء الآن الذي يتجدد في كل ضربةِ قدمٍ تنزل على الأرضِ فهذا معنى آخر من معاني السير،

رُبما هذا هو *الاهتمام* الذي يتحدثون عنه!..

العجوز وزوج ابنتها كانا مهتمين بـ (سلمى) فأضاءت الأرض من تحتهم، أخوتها لم يكرهوها لكن ليس فيهم مُهتمٌ بها، حسنًا.. إن كان هذا هو الحال؛ فكان من الطبيعي أن تضيء أقدام الممرضة والطبيب، إذن ليس

الاهتمام، لعلها الفائدة والنفع؟! لا لا .. ليس هذا، ربما الودّ والحب، ربما الصدق، أو أن يكون الشخص من العائلة، ربما.. ولعل الإجابة كلٌّ ذلك؟!

سريره جاهز؟ افسحوا الطريق من فضلكم لنمُرَّ. -

سريرٌ يعبُرُ وأقدام حوله كثيرة، الضوء هذه المرة كان مبهرًا، مدهشًا، الخطوات لم تعد تضيء.. بل الأرض كلها من كثرة الرجال عليها، كلّهم.. وكأنَّهم يضيئون على قلبِ رجلٍ واحد، وحضورٍ واحد، ويا للعجب! لا خطوة مُظلمة واحدة في كل مَن أتى!..

كان الرجل الراقد على سريره لم يفق بعد، والرجال من حوله يُقبلون عليه، واحدٌ يغطيه، وآخر يعدل قدمه، وآخر يتأكد أن المحلول مُوصَّل بصورةٍ جيدة إلى عروقه، وآخر يعطي مالًا للممرضة الحاضرة، وآخرهم يهتف: *سأذهب لأحدِّث الطبيب وأتأكَّد أنهم أزالوا منه المرارة على خير*.. وآخرهم يضع يده على جسد الراقد النائم ويقول بصوتٍ مسموع:

أسأل الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يشفيك*.*

هدوء يغلب الغرفة وسكينة، حتى أنَّ أغلب المرضى ناموا، قام الشاب المرح بعدما غطى الرجل المُسنّ بغطاءٍ وجده في حقيبته، وجلس بزاويةٍ قريبة صامتًا، كان الرجالُ المُضيئةَ أقدامهم ملتفين حول سرير صاحبهم، أخرج واحدٌ منهم كيسًا فيه بعض الحلوى ووزع عليهم، تتقلّب عيناه في أرجاء الغرفة؛ فلمَا استقرَّ نظره على الشاب في أحد الأركان.. ذهب إليه، قدَّم له كيس الحلوى عارضًا عليه أن يختار منه ما يريد، ردَّ الشاب دعوته بأدبٍ، فاقترب الرجل منه ثُمَّ جلس بجانبه، لم يحاول إقناعه مرة ثانية بتجربة الحلوى، بدأ بالأكل منها وهو يسلّم على الشاب ويبتسم:

أنا (إسماعيل)، وأنت؟ -

مدّ الشاب يده وأجاب:

وأنا (إسماعيل)!. -

تمزح؟! -

ضحك الشاب وأكّد:

والله اسمي، والدي الذي اختاره على اسم والده، بالإضافة لأنه يحب نبي الله (إسماعيل)، ويتمنَّى أن أكون بارًّا به مثله. -

ابتسم (إسماعيل) الكبير، ومدّ يده حينها إلى (إسماعيل) الشاب بكيس الحلوى وهو يسأله:

وما اسم والدك؟. -

بأريحيَّة تامة.. أخذ الشاب قطعة حلوى وهو يجيبه:

إبراهيم)!.) -

علا صوت ضحكهما في الغرفة، دقيقة حتى عاد الكبير بينهما يسأل:

أنت مرافق هنا؟ -

نعم. -

مع مَن؟ -

أبي. -

قلقٌ عليه؟ -

بل خائف جدًا!. -

لا بأس عليك، خف كما تشاء، ليس عيبًا. -

التفت له الشاب وعلى وجهه حيرةٌ عظيمة، فابتسم الكبير وقال:

المهم ألا تسمح للخوف أن يحبسك، أتعلم.. كنتُ شخصًا جبانًا جدًا، خائف من كل شيء، وبارعٌ أنا يا - إسماعيل) في التمثيل.. فلم يكتشف أحد الأمر، ماهر في إظهار عكس ما أُبطِن، ولطالما أفزعني التفكير أنَّ) شخصًا واحدًا قد يقترب مني بما يكفي ليكتشف حقيقتي، وأني لستُ كما أدَّعي من جرأةٍ وجسارة وشجاعة، مرتعبٌ طوال الوقت..

في يوم ركبتُ مواصلة، وكان السائق قد شغَّل إذاعة القرآن الكريم، لم أكن منتبهًا لما يخرج من سماعة السيارة حتى فاجأتني تلك الآية وهي تضرب سمعي وتصفع لا مبالاتي، كأنّها تقول لي.. *أنصت يا أحمق!*.. كان الشيخ يقرأ على لسان *موسى* عليه السلام لما قال لقومه.. (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ). فحدثتُ نفسي حينها..

هل كان (موسى) يبالغ في ثباته أمام قومه ويتظاهر بالشجاعة مثلي؟! أم أنه صادقٌ مع الله؟!*.*

كان الشاب يُنصِت إلى (إسماعيل) الكبير باهتمامٍ شديد، فأكمل:

لما فكرتُ في هذه الآية من سنواتٍ تعجبتُ من صدق (موسى) مع الله؛ كنتُ أقول في نفسي.. *هذا إيمان - الأنبياء ويقينهم.. فأين أنا منهم؟!*.. ظللتُ هكذا أُعلّم نفسي وأذكِّرها في كل موضع تدهشني فيه أفعالهم ويزداد يقيني أنَّ للأنبياء حقًا قلوبًا غير قلوبنا، أفئدة لا تتأثر بما يتأثر به عامة الناس، وفيهم ما ليس في غيرهم..

حتى انتبهتُ يومًا لقوله تعالى.. (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ). فكأني أقرؤها للمرة الأولى، ورد المولى عليه.. (قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ).

ارتجف (إسماعيل) الشاب وهو يردد:

- هو ذاك يا رجل، هو والله.. الخوف.

وضع الكبير يده على قدم الشاب، ربت عليها برفق وابتسم بتفهمٍ وحنان:

- ذلك الشعور الإنساني الذي يتملكنا جميعًا كان داخل صدر (موسى) عليه السلام وهو النبي.. لكن الله الذي يعلم السر وأخفى قال له (لَا تَخَفْ).

علِم (موسى) أنَّ خوفه على قومه من الفتنة.. والذي هو مجرد شعور قلبي مخفي لا يكاد يُرى، لم ينطق به ولم يصرّح؛ عرفه الله.. فصار هذا الخوف بمعيّة الله؛ فاطمأنَّ.

لذلك لما قال لقومه والعدو من خلفه والبحر من أمامه.. (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ). حقَّ له أن يقول (مَعي ربِّي)؛ فهو الذي عرف سره دون أن يبوح به من قبل.. وطمأنه، ألن ينصره أمام عدوه وهو الذي خرج بنفسه وقومه هربًا بدين الله؟!

إذن.. لم تكن مُبالغةً من (موسى) عليه السلام حينما آمن بقلبه وعقله وقال (معي ربي)، أتعلم يا (إسماعيل) ما الأجمل من هذا؟.

- أخبرني

- أنَّ معيّة الله ومحبته ولطفه ورحمته ليست لـ (موسى) خاصة؛ بل لعباد الله أجمعين، ولعلّ أقرب مثال يحضرني الآن لما عاتب الله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حينما جاءه (عبدالله بن أم مكتوم) الرجل الأعمى، فصرف نبينا وجهه عنه لانشغاله بدعوة كبار قريش؛ فنزل القرآن..

عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣)).

وكأنَّ الله يخبرنا، إن كان (عبد الله) لا يرى؛ فإن ربه يرى، فأيُّ فضل وكرم هذا!.. والآن يا (إسماعيل) ما الذي ستخافه ومعك الله؟!.

فأجابه الشاب بصوتٍ متهدّج باكٍ:

- أن تنفد مني الحيل والأفكار؛ فأعجز عن الإقناع!.

كانت إجابته عجيبة بما يكفي لتدهشني وتدهش (إسماعيل) الكبير كذلك، الكلمات بدأت بالخروج من فمِّه وأظنه سيسأله ما يعني بالحيل والأفكار، ويعجز عن إقناع مَن..

دخلَت حينها الممرضة التي قابلتهم في بداية اليوم، التفتت إلى (إسماعيل) وسألته:

أين الحذاء؟. -

فقام إليها مسرعًا ليعطيني لها، وقبل أن يحملني.. استيقظ الرجل المُسنّ، وطلب دخول الحمام، ومن الواضح أنه لا يستطيع الذهاب وحده، فعرض عليه الشاب أن يذهب معه ليساعده لكنه رفض، وأصرَّ أن ينتظر مجيء ابنه ليدخل معه، حاولت الممرضة إقناعه و(إسماعيل) الكبير ينصحه بالذهاب، وأن الشاب اللطيف لن يزعجه، والشاب نفسه يبتسم له ويمازحه أنّه لن ينظر إليه وسينتظره على الباب فقط، كلّ هذا والرجل يرفض ويقول بخجلٍ وهو يشيح بنظره عنهم:

سامحوني، أستحي أن أذهب إلى الحمام مع أي شخصٍ غريب والله!. -

بدأ المريض الذي كانت له صحبة وضَّاءة بالإفاقة، فذهبَت إليه الممرضة و(إسماعيل) الكبير معها أيضًا ليطمئن على صاحبه، أما الشاب فلا زال يقف أمام الرجل المسنِّ يحاول إقناعه بالسماح له بالذهاب معه، يقول له:

أنا لستُ غريبًا يا حاج والله، ألم نأكل معًا صباحًا؟ نحن أهل إذن.. أليس كذلك؟. -

لكن الرجل المسن ظلَّ على إصراره بالرفض وهو يشيح عنه بنظره ويخبره:

لا، لا أعرفك، سأنتظر ابني!. -

قالها وجلس على السرير رافضًا التحرُّك، وعاد الشاب قافلًا إلى الزاوية التي كان يجلس فيها منذ قليل، وحيدًا شاردًا، وكنتُ سمعتُ من قبل في الجامعة أنَّ العيون عند شرودها ترى الفراغ لكن الحقيقة أنها تنظر بداخلها حيث الألم الذي لا يجوز نزع الستر عنه وإلا سيلتهم ما تبقى في الشخص من ثبات!.. بداخلي شفقةٌ كبيرة على هذا الشاب، لا أدري مصدرها؟!.

الرجال المضيئة أقدامهم يلتفون حول صاحبهم يعينونه على الجلوس، والممرضة بجانبه تقيس ضغطه، دقيقة حتى أتى صوت قطرات ماء تتنزل بجانبي وتندفع باتجاهي! أسرع الشاب وكأنه يقفز على الأرض من مكانه حيث الرجل المُسن ينظر إليه بعينين حمراوين، والدموع تجري منهما، كذا الماء يجري من ملابسه وهو يشهق بفزع وأسى في أذن الشاب:

آسف.. والله آسف، لم أستطع إمساك نفسي. -

ظل الشاب واقفًا أمامه، ضمّ رأس الرجل المُسنِّ إلى صدره وهو يهمس له:

لا بأس.. لا بأس، أكملها، لا تمنعها أكثر من ذلك، أكملها، وسأنظفك بعدها تمامًا كأنه لم يحدث أي شيء. -

وكالطفل الصغير سأله بأملٍ:

حقًا؟! -

حقًا يا حاج والله.. اطمئن. -

تشبّث بذراعه وهو يسأله من جديد:

وابني لمَّا يأتي لن يكتشف الأمر؟! -

أبدًا أبدًا، لن أترك أي أثر، سآخذك للحمام، وأحممك، وأضع لك عطرًا، ونغيّر ملاءة السرير... -

قاطعه الرجل بقلق:

لا أعتقد أن معي ملاءة أخرى في الحقيبة!. -

فقال (إسماعيل) الشاب مُطمئنًا:

ما رأيك.. أنا معي واحدة زيادة.. لن يحتاجها والدي، سأفرشها لك. -

سلمت يا ولدي، لا أدري لماذا تأخر عليَّ ابني، كأنه لم يعد يريد رؤيتي؟!. -

لا تقل هذا يا حاج، كلنا هنا أبناؤك حتى يأتي ولدك. -

كانت الدموع لا زالت تنزل من عين الرجل، لكن الغريب هي دموع الشاب التي بللت وجهه، تأثره عليه شديد، وحسرته عليه تُثير تعجبي!..

لفّ الشاب ملاءة السرير على جسد الرجل المُسن، وقام وهو يسنده بيدٍ وفي الأخرى يحمل حقيبة ملابسه.. وخرجا معًا إلى الحمام.

ظلَّت الأرض تنير من ورائهما مدةً من الزمن، لطيفٌ هذا الشاب، لو كان لي أن أتخذ صديقًا؛ لكان هو، ففيه أهم ما يميّز الرفقاء.. *يستُر عيبَ صاحبهِ، ويَستُر أنَّه سَتَرهُ!*.

الآن.. أما لأحدٍ أن ينظف هذه الأرض؟ فالماء يكاد يصل عندي ويضيف لجملة مصائبي مصيبةً جديدة!.. حينها أقبَلَت ممرضة ترتدي نظارة خضراء كبيرة تغطي نصف وجهها من خارج الغرفة ونادت بأعلى صوتها:

حالة المرارة، الحاج (إبراهيم إسماعيل) يجهز للعمليات، الحاج (إبراهيم إسماعيل) يجهز للعمليات... -

ولمَّا لم تجد ردًا تلفتت بعينها تنظر إلى الأَسرَّة، وقفت عندي بجانب السرير ونادت على الممرضة التي كانت لا تزال تضع محلولًا لأحد المرضى، وأخبرتها وهي تشير إلى فِراشِ الرجل المُسِن:

ابحثي عن الرجل الذي كان على هذا السرير وجهزيه للعمليات، واطلبي من ابنه (إسماعيل) الذي معه أن ينزل للتبرُّع بالدم الآن وإلا لن أُدخِل والده العمليات!.

سألتها الممرضة الأخرى بتعجب:

الذي كان معه هو ابنه؟! -

فأجابتها ذات النظارة بغير اهتمامٍ وكأنه أمرٌ عادي:

نعم، والرجل المسن مصاب بالزهايمر. -

قالت جملتها ومضت، ووقفت الممرضة الأولى من خلفها في مكانها دقيقة وكأنها تستوعب ما سمعت، ولا زلتُ أنا مدهوشًا، ابنه؟!

أسأل بكلِّ تعجب الدنيا.. أين أنا حقيقةً؟! وما هذا المكان؟!

ما الذي دفع هذا الشاب لكل ما يفعل؟ ما الذي يضطره لهذا؟!

لا أفهم كيف يتحمل أن ينظر في عيني والده ولا يرى نفسه، ولا يسمع اسمه، ولا يُسمَح له أن يُعانقه أو يحدثه إلا كغريبٍ لا يعرفه؟!

كيف يصبر *إسماعيل* على هذا؟ كيف؟!

ليتهم ينادونه ليعود، أريد أن أراه، أفهمه، أسمعه، أريد أن أعرف.....

لا.. لا... ليس ثانية، اتركيني أرجوك، ألم تجد الممرضة شيئًا تفعله هذه المرة إلا أن تأخذني معها؟! أرجوكِ أريد العودة إلى (إسماعيل)، أريد أن أعرف لماذا يفعل ما يفعله!

دعيني عنده رجاءً!!!.

* * *

من لم يحسّ بالألم؛ لم يُحسِن إلى المَتألمين!*.*

هل هذا ما ما يعنيه الأمر؟!

أني أُحسُّ، أتألم لأجله، لكنّي واثق أنَّ الألم يخصّني، ألمي أنا وليس ألمهم، ومجرد أنه أصابني بالتبعية، هذه الشفقة النابعة داخلي والنابتة في جوانبي وأركاني.. تصيبني بالربكة!.. وإن كنتُ حقًا أشعر بهم؛ فإلى متى يظل الجماد يتوجَّع من موقفٍ أو مشهدٍ أو حديث؟!

سؤال ساذج جدًا، فالجماد لا يتوجع بدايةً ليكون لآلامه موعد انتهاء، حسنًا، ماالذي يحدث فيَّ؟! ضعفٌ يملأني، وألم، حتى الهواء الآن يعبر من فوقي فيخلخل ثباتي، هل أرجو منهم أن يعيدوني؟ لمن؟

سلمى) أم (إسماعيل)؟)

هل أنقسم شقين وأذهب بطريقين وأتبع شخصين؟!

يا رب السموات والأرض.. ما الذي أصابني فأنهكني هكذا؟!

ما هي إلا ساعات قُضيَت، لكن ما ظلَّ منها في صدري يخنقني ويذهب بي كل مَذهَب! انتهى المطاف بالممرضة وبي أخيرًا بغرفةٍ بيضاء، في منتصفها طاولةٌ قد وُزِعَت عليها أدويةٌ كثيرة، تركتني على الأرض وجلسَت على كرسي وقد أرجعَت ظهرها إلى الخلفِ في هدوءٍ، وعلى وجهها ابتسامة وكأنها ليست التي حطمت آمالي الآن وبعثرت صرخاتي في الطرقات دون التفات!

مضَت ساعة من عمر الزمان، ولا شيء من عمر المكان وعمري، أحاول صرف فكري عن كل ما سبق، لكن هناك معنى داخلي ينحت في جوانبي نحتًا، وسؤال يقتطع فيَّ اقتطاعًا.. *ماذا لو كان الشعور أمرًا مُكتَسَبًا؟! وأن كلَّ ما تشربته منذ بداية صنعتي حتى مجيئي هنا كان شكلًا واحدًا من أشكال التعمّق في الحياة؟!*.. لعل آية ما بيني وبين الشعور أن أفهمه!

أن أُفسّره تفسيرًا يخرج به من هيئة التصور غير المفهوم لهيئة الحضور المعلوم.. لعل!..

وربما كنتُ من البداية أشعر لكن محدودية الشعور قيدتني بين الفخر بنفسي والاكتفاء بها وكره المكان هنا، ثلاثة مشاعر فقط!

هذا ما استطعتُ الخروج به من حياتي السابقة، تعسًا تعسًا لخبراتي!..

يبقى سؤالٌ واحد.. من أين أستقي الشعور؟ من المكان، الأشخاص.. كل الأشخاص؟! لا أعتقد، ما الصلة التي تدفع هذه المشاعر إليَّ وتسكنها فيَّ؟

هذا إن كنتُ حقًا أشعر.. وإلا فتفسير كل هذا أني جُننتُ والسلام!..

هُنالِك فُتِح الباب وعبرت منه فتيات أثرن الكثير من الضجة والهرج، يبدو على ملامحهن التعب، جلَسَت واحدة ترتدي معطفًا أزرقَ وتنهَّدَت بقوةٍ وهتفَت:

لن تتخيّلوا ماذا حدث اليوم؟! -

التفت إليها الجميع، واعتدل البقية وبدا على وجهها الفخر والاعتداد بالنفس وهي تتكئ بدلالٍ وتبتزهم بقولها:

كم ستدفعون؟-

نفخ البعض بضيقٍ، وأشاح البقيَّة بأيديهم؛ فتجلَّت على ملامح ذات المعطف أمارات الخجل، اعتدلَت وحكَت دون تقدمة:

وقفت سيارة مرسيدس اليوم أمام باب المشفى الرئيسي، ونزل منها رجلٌ طويل يرتدي معطفًا طويلًا - ونظارة شمس، دخل من الباب دون تذكرة، ولما أوقفه رجال الأمن.. رأيتُه يخرج بطاقةً من محفظته أظهرها لهم وعبر حتى وصل لغرفة المدير ودخلها دون استئذان وأغلق الباب خلفه.

سكتت، تلتقط أنفاسها، يحثها الجميع على التكملة وريّ ظمأ فضولهم، فنظرت لهم بشماتةٍ مستفزة، وأكملت على أية حال:

مضت ربع ساعة ثُمَّ سمعنا كلنا صوت صراخ قادم من الغرفة، دقيقة وفُتحَ بعدها الباب وخرج منه الرجل - وهو يهتف:

سأعلمك حقًا من أنا، والحذاء سآخذه.. شئت أم أبيت، ولو أردتُ أن آخذ عمرك نفسه.. سأخذه*.*

فتسللتُ إلى باب غرفة المدير.. لأفهم ما الذي يحصل، حينها سمعته يتحدّث على الهاتف ويحكي لشخصٍ ما أن الرجل جاء يطالب بصندوق وضعه أحدهم اليوم أمام المشفى، لا يريد أي شيء من محتوياته إلا حذاءً كان فيه من باب الخطأ، ولمَّا أخبره المدير أنه لا يستطيع تتبع ما حصل للصندوق لأن أغلب ظنّه أن الأهالي خارج المشفى قد استولوا عليه بالفعل؛ غضب حينها الرجل وثار وماج وهدده وغادر!..

أستمع لهم وأشعر بقلبي يرقص.. هذا لو كان لي قلب لكان يرقص بالتأكيد!

أحسُّ بالسعادة والأمل على أية حال، أيُّ مكان بالنسبة لي أفضل من هنا، المكوث هنا مُتعِب ويُضعِفني، يجعلني دائم الفزع، ولا يستقر فيَّ الشعور.. دائمًا على قلقٍ، أريد أن أعود لعالمي.. حيث لا أحمل همَّ شيءٍ غير أي نوع من ملمعات الأحذية سيضع صاحبي عليَّ اليوم!..

قاطعت فتاة منهم أفكاري وهي تُعلِّق:

هذا هو أقصى ما عندك في الإثارة، رجلٌ يبحث عن حذاء؟! -

ما استفادتنا نحن بما حصل للمدير أو ما سيحصل أو حتى مصير حذاء؟!.

كان كلامها قاسيًا عليَّ لكن باقي الفتيات استحسنَّ تعليقها، قالت واحدةٌ للفتاة التي انتعلتني من قبل:

دعكِ منهم، اقرئي لنا شيئًا يُنسينا ما نراه. -

فأخرجت الممرضة هاتفها وهي تتنقل بين ألبوم صوره وقالت:

كنتُ أحفَظ صورة هنا لمقالٍ أعجبني، اسمعوا.. -

بين الجامعة وبيتي خمس محطات مترو، أنهيتُ اليوم المحاضرات وركبتُه، الجو هادئٌ للحدِّ الذي جعلني أنتبه إلى محطةٍ في منتصف الطريق، كانت فارغة تقريبًا، هناك مقاعد كثيرة وعدد قليل ينتظر، لمّا فُتِح الباب؛ وجدتُني أقف وأخرج من باب العربة، أسير بضع خطوات لمجموعة كراسٍ في الزاوية، أجلسُ وأضع كُتبي بجانبي، كانت آخر محاضرة لا تزال تضيء برأسي..

زوجة (سعد بن الربيع) يموت زوجها؛ فيستولي عم بناتها على الميراث، وكانوا عند العرب لا يورِّثون النساء، ولا يورثون الأبناء إلا من كان فارسًا قويًا يساهم في الحروب والقتال، ولم تكن آيات الميراث قد نزلت بعد.

فَتَأْلف زوج (سعد) خمارها عليها وتأخذ بنتيها وتذهب.. فتستأذن.. وتدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وتجلس عنده.. فتضع بناتها أمامه وتقول:

مات سعد وأخذ عمهم المال، والفتيات لا تُنكَح إلا بمال....**

فيرتجف قلبي من مقولة..

ذهبت.. خرجت.. دخلت.. وقفت.. بين يدي رسول الله*!.. *

أتذكّر وصف الدكتور لكلمات زوجة (سعد)، وصوتها وهي تخجل من حديثها بين يدي نبينا.. فيتذبذب..ثُمَّ تنزل آيات الميراث؛ فيُرسِل نبينا إلى عم بناتها ويأمره أن يعطي ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي فهو له.

الآن تقوم زوجة (سعد) من مجلسها.. وأبقى أنا هناك مكانها، أبكي وأبكي، أسأله.. وأنا يا رسول الله؟! عربات المترو تمرّ وأنا لا زلتُ بمكاني، أمسح الدمع من عيني؛ فيتفجّر غيره!

أراني هناك.. حيث هو، سيدي.. وأنا، يسمعني، لم يجب سؤالي، لكن لو أنني عنده.. لدعا لي، كما دعا لعثمان بن أبي العاص وهو يحكي له أن القرآن يتفلّت من صدره؛ فيضع الرسول يده على قلبه ويدعو له، فلا ينسى عثمان القرآن بعدها أبدًا، أو كما أتت له فاطمة تحكي حالها؛ فيقول: *يا فاطمة.. ألا أعلمك كلمات....* وغيرهم وغيرهم، يا الله! بينهم رسول الله، كلّما ضاقت بهم الدنيا؛ ذهبوا إليه، فأيّ فضلٍ نالوه.. وحُرِمناه!..

مضت ربع ساعة منذ بداية جلوسي، فقمتُ لأركب عربة المترو الذاهبة إلى بيتي، وأنا أتمنّى من كل قلبي، لو أني أذهب إلى رسول الله.

كانت الفتيات متأثراتٍ من حولها، تنظر كلُّ واحدة منهن أمامها، عيونهن تسيح في الفراغ، كأنهن يذكرن داخل نفوسهن آلامهن ويحصرنها في ذكرياتهن، ثُمَّ يحاصرنها حتى لا تتفلَّت منهن، لعلّهن يتمنين حقًا لو كنَّ بزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصبُّبن عنده همهن!

وأجدُ في نفسي أن هذا التمنّي من الحماقة بمكان، فماذا لو كنَّ على زمانه لكن كان قدرهن أن كن من المشركين مثلًا؟!

أو من حظهن أن كان لهم آباء سوء فمنعوهن من الإيمان بالله ورسوله؟!

كأنّهن لم يتعلّمن من قبل أن الأمنيات الكبيرة قد تقتل أحيانًا!

عادت حينها الممرضة لتُكمِل ما تقرؤه عليهنَّ:

وفي طريقي مررتُ على بيتٍ أعرفه من زمن، أحببتُ سكّانه، ونسجتُ في حوائط دارهم خيالاتٍ مدهشة، - وحكايات مؤنسة، ثُمّ أتى اليوم الذي غاب الودُّ عن عيونهم وأيديهم.. وفي النهاية قلوبهم!

أسرعتُ الخطى وأنا أمشي في شارعهم، كأنّما لا أريد لعيني أن تنتبه للمكان؛ فأتألم قليلًا.. أو كثيرًا، لكن.. تغلبني الأرض والأركان والريح فأنظر، مرّت حينها بجانبي سيارةٌ وقد علا صوت قارئ القرآن فيها..

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ). فأذكر الله سبحانه، وجبريل، ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، ونزوله إلى) زوجه (خديجة) بعدها وذهابهم إلى ابن عمها (ورقة بن نوفل)، فيخبرهم *أنَّ هذا هو الناموس الذي نزل على (موسى) عليه السلام، ويا ليتني كنتُ حيًّا لما تُرسل لقومك ويخرجونك*. فيسأله الرسول.. *أومُخرجيَّ هم؟*

فيجيبه (ورقة).. *ما أتى أحدٌ بمثل ما أتيت به إلا عُودي*.

أقف بمنتصف الطريق وقد انخلع قلبي حزنًا عليه سيدي، كيف تلقّى هذه الكلمات؟!

ثم ها هو يسأل بتعجبِ الآمن، بين أهله الذين يُحبهم ويحبونه، وعشيرته الذين يأمنهم ويأمنونه: *أومُخرجيَّ هم؟!*

لطالما قلت في نفسي.. *كيف هان عليهم؟!*..

يومها ظللتُ أكررها في نفسي وأنا أبكي وحدي على الطريق..

حتى نسيتُ ما فيَّ.. حتى أيقنتُ أني أحبّ رسول الله، وتالله ما قرأتُ في سيرة رسول الله جملةً أشقّ على قلبي من سؤاله سيدي... *أومُخرجيَّ هم؟!*..

ها هُنا يهون الهَمّ جدًا، ونذكّر أنفسنا أنها دنيا، فبعض الآلام تسكُن إذا مرَّت عليها سيرة رسول الله.

حتى أنا أسأل نفس سؤالها.. *كيف هان عليهم أن يُخرجوا رسول الله؟!*

الآن أنتبه لأوّل مرة أن ذلك الغطاء الذي رأيته من قبل قد عاد إليهم، شيءٌ منير.. لا ليس منيرًا، لونه أبيض.. يشبه اللبن في نقائه، تسَّاقط منه قطرات على رؤوسهم وأجسادهم!.. وكأنَّ سحابةً تحوم فوقهم، هناك تحت السقف مباشرةً، تنزل عليهم ماؤها، تقع القطرات عليهم فتضيء موضع حلولها، ثُمَّ لا تزال تتحرَك على جسدهم كالماء الجاري إلى أن تصل للأرض من تحتهم، فتمتصها، ويظلّ أثر مرور كلّ قطرةٍ على أجسادهم من ورائها منيرًا باقيًا!

لعلّها الكلمات التي قيلت، أو المجلس، أو الغرفة؟! هذا الغطاء من هدوء.. رحمة، تتنزَّل عليهم، رأيتُها عندهم مرةً من قبل، بعدما ضاعت (سلمى)، والآن، هل هو شيءٌ خاص بالمرضى أم الإنسان؟!

لا أستطيع فهم هذا المكان!

في الجامعة كان كلُّ شيءٍ مفهومًا ومعلومًا، ماذا يفعلون، يعملون، يأكلون، يدرسون، يمزحون، كل شيء مُتوقّع في النهاية، أما هنا.. فأقدامٌ تضيء، وأرض تخفي بداخلها المياه، وأسقف تنزل عليهم خيالاتٍ من نور.. أو لبن.. أو مطر! لا أدري.. لم أعد أدري أي شيء بعد الآن، هذا المكان سيصيبني بالجنون لا ريب!..

لا زالت الفتيات متأثرات، لكن واحدةً منهن ترتدي حجابًا أبيض تكوَّمَت في الزاوية ترتجف ثُمَّ صارت رجفتها بكاء، دموعها تنهمر على وجهها وملابسها، تجمَّعَت الفتيات حولها، كلٌّ يمسح على كتفها ويضمَّها، قالت بصوتٍ مُتهدِّج وصدرٍ ينتفض بعد دقيقة:

تعرفون المرأة التي كانت من (أسيوط)، وظلَّت هنا ترافق زوجها طول النهار وفي المساء كانت تختبيء أسفل سلم المعمل لتبيت هناك لأنه ممنوع أن تبيت في عَنبَرِ الرجال.. تذكرونها؟ -

أجابت الواحدة تلو الأخرى.. *نعم.. نعم، كنتُ أمرُّ عليها لأعطيها وجبةً زيادة لتأكلها*، *وأنا كنتُ أحضر لها دواء السُكّر فقد كادت تدخل في غيبوبة من يومين*، *مسكينة.. لم تكن ترتاح بالنهار أبدًا، زوجها عظامه توجعه وهي تدلّكه طوال الوقت حتى يتخدّر جسدها من الألم*. -

زادت العبرات على وجه ذات الحجاب الأبيض وأكملت:

اليوم مات زوجها! -

سكتوا جميعًا، فتابعت:

وعائلته الذين لم نرهم من قبل ولم يهتموا به ولو مرةً طوال مدة مرض الرجل ظهروا فجأة وصار له أهل! -

وبمجرّد أن أتوا وقبل أن يتم نقل زوجها للمشرحة.. طردوها!

شهق الجميع فزعًا واستنكارًا وشفقةً...

رفضت زوجته الخروج من الغرفة وتركه، فقامت أُمُّه إليها وأمسكتها من رأسها تجذبها من حجابها للخارج حتى أنه تمزَّق وظهر شعرها وجزءٌ من جسدها وهي تجُرّها على الأرضِ جرًّا، ظلَّت تتوسّل إليهم أن يسمحوا لها بالبقاء، وهم باقون على موقفهم منها، كانت تجرُّها جرًا وهي تصرخ بها: -

كما أخذتهِ منَّا رُغمًا عنَّا ليتزوجك.. اليوم سنأخذه منكِ رغمًا عنكِ ولن تقتربي منه أبدًا!*. حاولتُ التدخل * ونجدتها من أيديهم، لكن أبوه وقف أمامي وصرخ بي.. *أمورعائلية؛ فما دخلك؟!*.

ولمَّا أصررتُ على تخليصها منهم؛ هددني أنِّي لو تحركت خطوةً واحدة تجاههم؛ فسيقدّم فيَّ شكوى لمدير المشفى ويصرّ على طردي، وسيحرص كل الحرص أن لا تقبل أي مشفى آخر تعييني.

ما هذا الشر؟! ومن لهذه الفتاة الآن؟! بقيت وحدها أمامهم!.

سألتها ذات المعطف الأزرق:

وماذا فعلتِ؟ -

كانت الفتاة تنظر إلى الأرضِ وهي تجيب على سؤالهنَّ، كأنها تختبيء منهنَّ خجلًا:

خفتُ على نفسي، وخرجتُ من الغرفة دون أن ألتفت إليهم ثانيةً. -

وباقي المرضى.. ألم يتكلّم أحد.. أيُّ أحد؟!. -

فأجابت بأسىً:

لم يتحرَّك شخص واحدٌ من مكانه!. -

قالتها ورفَعَت رأسها إليهم، عيونها بالدموع ملأى وتسأل بصوتٍ مختنق:

أنا لستُ مُخطئةً.. أليس كذلك؟ لم أكن لأستطيع التدخُّل وإلا كنتُ سأخسر كل شيء، ولم يكن يحق لي التدخل أيضًا.. صحيح؟... -

كلهنّ صامتات، أعينهن تحاصرها، تختلف النظرات بين استنكارٍ وشفقة، عتاب وتفهُّم، لوم ورحمة، هتفَت بهم وهي تعود بقدمها إلى الخلف في شيء من الكسر في ذاتها والفرار.. ليس منهم، بل من نفسها:

صدقوني لم يكن في يدي شيءٌ لأفعله.. أرجوكم صدقوني!. -

لم تجد منهن غير الصمت! لم يَجبُرها أحد، بدا الأمر قاسيًا عليها جدًّا؛ فعادت تتكوَّم في زاويةٍ من الغرفة في صمت!..

لماذا يُصدّر البشر الأحكام على بعضهم؟! ربما لو كنَّ مكانها لكان رد فعلهنَّ أسوأ منها، أو أفضل منها، لا أدري، فلستُ أعلم الغيب؛ فهذا لله وحده، لكن في جميع الأحوال ما كان لهن أن يتركنها لأفكارها الآن وهي تستجدي منهن كلمةً واحدة تهدئها، ربما هي أخطأت، أو لم تخطيء، لكن في انهيارها الآن دليل على علمها في داخلها أنها مُخطئة، وهذا آية الإيمان، القلب هو مصدر الصدق الوحيد.

كان مشهدها وهي تخفي وجهها بيدها حتى لا ترى أحدًا يثير الحزن فيَّ، وأعتقد أن لا يشكك أحدهم في محنتك، مشقتك، ويؤمن أنك تتألم، ويثق أن المشكلة التي تقف على صدرك الآن هي من أشد الأمور فتكًا لعزيمتك...

أن تُرزَق من يُصَدقكَ**

أعتقد أن هذا أقصى ما قد يتمناه الإنسان من أخيه الإنسان في هذه الحياة.. لينجو بنفسه على الأقل دون أن يتشظى!..

على باب الغرفة وقف فتىً يبدو في الثانية عشر من عمره تقريبًا، فجسده لا يدل على أكثر من ذلك، وجهه مُلطخ بلونٍ أسود ويده وقدمه، يلهث من شدة اختناق الهواء بصدره، يشير لهم بيده ويسعل بين كل كلمةٍ وأخرى، في النهاية أدركوا أن والديه خارج المشفى أصيبا في حريقٍ وهو لم يجد أحدًا يرضى بالقدوم معه وجلبهما!..

قامت ذات المعطف الأزرق إليه بسرعة، تبعتها التي ترتدي نظارة، وأحسبهم لما أدركوا أنه حافيَ القدَم.. حينها جذبتني واحدة منهما وقالت:

ارتدي هذا حتى لا تُجرَح قدمك. -

فألقاني على الأرض بسرعة ولم يتكلَّف عناء سكون قدمه فيَّ، أدخل فقط جزءًا من قدمه، ثُمَّ ضغط عليَّ و*كَعَبَني* ليسير بي كنعلٍ، وكانت قدمه أصغر من كلٍّ من سبقه؛ فلم ينتبه لوجود المسمار.. تَـبًّا!..

* * *

خرجنا من بوابة المشفى فبدَت الشمس كأروع ما يكون، الجو دافيء بها، أجدُ في تجدد طلوع الشمس شيءٌ يُشعِل حماستي، شروق الشمس.. هذه الصناعة الربانية المُذهِلة، والتي اعتادها الكون بكل ما فيه، كذا عيني، كنتُ انظر إليها، هي ذاتها كل يوم، ومع ذلك أظل أراقبها وأنتظرها كل صباح، حتى تأتي مرة.. تُعوِّض كل المرات التي لم أستمتع بها أو فاتتني ظهورها، أقف في انتظارها؛ فأراها كأنما تصعد من باطن الأرض، تزحف رويدًا رويدًا، ونورها يُصبِّح على الأرضِ رويدًا رويدًا، تشقُّ السماء حتى تصل لأعلاها، ويتنزّل ضوؤها على كل شيء، فيكون شروقها فيَّ أكثر من شروقها في السماء، وكأن الله أرسلها لي وحدي!..

نمشي وراء طفل؟! -

قالها ممرضٌ طويل يمسك كرسيًا متحركًا ويعبر به الطريق، والممرضة ذات المعطف تتبعه بكرسيٍ آخر، وكلاهما يتبعان الفتى الذي ينتعلني، وأثق أنه سمع الرجل في جملته التهكمية لكنه لم يلتفت له!

لم نكد نعبر الطريق أمام المشفى حتى وجدنا شقًّا جانبيًا بين عمارتين، وفيه يرقد شخصان على الأرض ورائحة احتراق جلديهما تفوح في المكان، ولا زال الدخان يتصاعد منهما، أسرع الثلاثة إليهما، فأزاحت الممرضة الفتى وهي تهتف:

أنت طفل، ابتعد، لا تعطلنا. -

كانا موضوعين على ملاءتين، فرفع الممرض الملاءة التي تحوي الرجل ووضعه بحرصٍ على الكرسي المتحرك، ثُمَّ رفع المرأة بعده ووضعها على الكرسي الآخر، وبسرعةٍ عبرا الطريق عائدين إلى المشفى، كان الفتى يمضي خلفهما في صمت، لا دموع تسقط منه، لا تأثر في مشيته، ولا فورة في دمه، فقط يسير من ورائهما بنفس سرعة سيرهما، دخلوا إلى المشفى جميعًا، واتجهوا إلى غرفة الكشف، أخذ الطبيب الرجل المصاب أولًا، كشفوا عليه، كانت إصابته تحتاج لعنايةٍ خاصة ووضع بعض المطهرات والأربطة عليه، طلب الطبيب أن يتم نقله لعنبر الجروح والتعامل مع إصابته، بعدها وُضعت المرأة المصابة على السرير، كانت ملابسها قد التصقت بجلدها في أكثر من مكان في رجلها، حاول الطبيب التعامل مع حروقها لكن تعذَّر عليه، فأمر بتجهيزها للدخول إلى غرفة العمليات.

نادت امرأة على الفتى وسلَّمته ورقتين، ويجب عليه كتابة البيانات المطلوبة فيهما، ونبَّهته أنَّ أمه سيتم تجهيزها للعمليات خلال ساعة، وعليه أن يدفع سبعمائة جنيهٍ في الحسابات لأجلها، وإحضار وصلٍ ووضعه مع ورقة أمه، وإلا لن يتم السماح لها بإجراء العملية، انتهت من كلماتها ثُمَّ نظرَت إليه بشيء من الاحتقار وقالت:

ما فائدة كل هذا الشرح لك وأنت لن تستوعب حتى نصفه؟! أحضر شخصًا كبيرًا لأعيد عليه كل هذا مرة - ثانية!.

تركت له الأوراق وذهبَت، التفت الفتى ينظر للمكان الذي كانت أمه راقدة به؛ لكن الممرضة ذات المعطف أوقفته قبل أن يعبر للغرفة وقالت:

- لا داعي لدخولك، سنأخذها ونصعد بها للدور العلوي لتجهيزها إلى أن تحضر شخصًا كبيرًا ليتعامل مع إجراءات المشفى.

قالت ما عندها ثمَّ ذهبت كذلك في طريقها، وقف من خلفها يتلفَّت يمينًا ويسارًا، وكأنه لمح شيئًا يبتغيه؛ فاتجه إليه، وقف في طابورٍ طويلٍ ينتظر أن يصل إليه دوره، مضى الوقت ثقيلًا، وحركة الأقدام بطيئة، لا زالت حركة الفتى ثابتة، لا شيء يخلخله أو يقلقه، كأنما صنع من جماد، أخيرًا أتى دورنا أمام النافذة لنسأل فأخرج الفتى ورقةً من جيبه مطوية، فتحها وأمسكها بيمينه، وفي يساره الأوراق المطلوب منه ملؤها، قال للموظف خلف النافذة الصغيرة وهو ينظر للورقة التي بين يديه ويقرأ منها:

- عمي أرسلني أسأل عن إجراء هذه العملية كم سيتكلف وهل يمكن التقسيط؟

مدّ يده بالورقة التي تخص أمه وفيها بياناتها وسلمها للموظف، فأجابه الأخير:

- المبلغ سبعمائة جنيهٍ، ولا إمكانية للتقسيط ويجب دفع المال في خلال ساعة وقبل أن نغلق كشف الحسابات.

مدّ الفتى حينها الورقة الخاصة بأبيه للموظف ورفع الورقة التي في يده اليمنى ثانية أمام وجهه وقرأ منها:

- هل ستحتاج الحالة التي في هذه الورقة إلى دفع المال؟

قرأها وأنزل الورقة من أمام وجهه، نظر له الموظف بشكٍ، فقال الفتى:

- لم أقصد مضايقتك، عمي الذي يسأل وهو رجلٌ كثير الأسئلة وليس أنا.

- ما اسمك؟

- رضا.

قذف الورقة الخاصة بأبيه تجاهه وهتف:

- هذه الحالة نعالجها مجانًا، والآن هيا اذهب من هنا، كفاك تضييع وقت، وراءك أناس كبار أهم منك.. هيا اذهب!.

تلقَّف (رضا) الورقة منه الخاصة بأبيه، وبحث عن كرسيّ فارغ ليجلس عليه وبدأ في ملأ البيانات، وقف أمامه شاب وقال:

- ما فائدة جلوسك أيها الصغير؟! هيا قم من هنا، دع الكرسي لشخص آخر يستفيد منه.

قام من مكانه وجلس على الأرض، لم يلتفت خلفه لينظر الذي جلس من بعده، وقد كان هو الشاب الذي صرفه، لكن الفتى لم يهتم بالأمر، رفع ركبته وضمَّها إلى صدره وأسند عليها الأوراق، وضع بجانبه الورقة التي كان قد أخرجها من جيبه وقرأ منها على الموظف، كانت فارغة!

ما الذي كان يقرؤه إذن؟! ولماذا فعل هذه الخدعة وأوهَم الموظف أن هناك أسئلة بين يديه؟! لا يعجبني هذا الفتى!..

انتهى سريعًا من بيانات والده، قام من مكانه واتجه للغرفة التي حجزوه فيها وقدَّم لهم الورقة التي ملأها، استلمتها منه الممرضة وقالت له..

الآن اذهب وأحضر الشخص الذي سيبيت مع والدك هذه الليلة.-

فقال (رضا) سريعًا:

أنا سأبيت معه. -

وأُمَّك؟ -

سكت رضا ثوانٍ ثُمَّ قال:

أختي ستفعل. -

نظرَت له بازدراء وسألته:

ماذا ستفعل مع والدك وأنت صغير لا يمكنك أن تراعي أحدًا؟! -

فأجابها وقد تخلخل صوته:

أختي ستأتي لتبيت مع أمي وأنا أخاف جدًا من الظلام ولن أبيت وحدي في المنزل، أرتعب والله يا أبلة، أرجوكِ اسمحي لي بالمبيت معه. -

حرَّكت كتفيها له بلا مبالاة وذهبت في طريقها..لا يعجبني هذا الفتى على الإطلاق!..

وقف (رضا) بجانب سرير والده وهم يغيّرون له على حروقه، وكل دقيقتين يصرخ الطبيب بإحدى الممرضات لتخرج الفتى من الغرفة لأنه مؤكد لن يحتمل رؤية حروق والده، ثُمَّ ينظر إليه بتهكّم:

انتبه، لو شعرت أنك ستتقيء بسبب الرائحة والمنظر.. عليك أن تفعلها بالخارج بعيدًا عني تمامًا، فهمت؟. -

حرَّك (رضا) رأسه له دلالة الفهم، ظلَّ واقفًا يرافق والده حتى انتهى الطبيب من العمل على والده، بعدها سار خلف سرير والده وهم يحرّكونه في اتجاه إحدى الغرف، ظلّ يرافقه حتى وصل إلى العنبَر الخاص بالرجال في قسم الحروق، كانت تحيط بكل سرير ستارةٌ تخفي من ورائها مريضًا، وكان هذا الأمر مختلفًا

عن كل الغرف السابقة، فكل ما رأيتُ من غرفٍ كانت دون ستائر، أتت الأصوات عاليةً من خلفها، يبدو أن الغرفة ممتلئة، أدخل المُمرض السرير إلى الغرفة وفي طريق خروجه سأله الفتى وهو يمسك ذراعه:

عمي كان يسأل لماذا أبي نائم؟ -

لأنه أخذ مُسكنًا يساعده على النوم ويهدئ آلامه. -

كم المدة التي سيظل فيها نائمًا؟. -

نظر الممرض له بتململٍ من أسئلته؛ فأسرع الفتى بالتفسير:

عمي يسأل حتى يعرف متى يحضر ليرافقه ويبيت معه. -

ساعتين على الأكثر ويصحو.. ويا ليتك تخبر عمك أننا لا نحب وجود الأطفال هنا لأنهم مزعجين، لذا - عليه أن يأتي وحده!.

بعدها انصرف من أمام (رضا) دون إضافة المزيد من الكلمات، دخل الفتى لغرفة أبيه، مَرَّ على غطائه ولفَّه عليه جيدًا، اقترب من وجهه، مدّ يَدَهُ حيث أنفه، ظلّ دقيقة يتتبع أنفاسه على ما أعتقد، وكأنَّه يتأكد أنَّه لا زال على قيد الحياة.. ثُمَّ أعاد يده إلى جانبه في صمتٍ وخرج دون أيُّ تأثر!..

لا زال هذا الفتى لا يعجبني!!!..

بدأ يسير ويسير.. حتى خرج من المشفى تمامًا، عَبَرَ الطريق إلى الشق الذي كان يرقد فيه والديه من قبل، دخله ومضى فيه قليلًا، ثُمَّ وفي غرفة صغيرة من مدخلٍ أسفل بيت.. فتح الباب، دخل.. كانت الرائحة في الداخل أسوأ مما كانت عليه في الشِق من قبل، لم يلتفت الفتى لشيء إلا أنه ذهب لنافذةٍ صغيرة وفتحها لتفرَّ منها الرائحة فرارًا موليًا كأنما هي المختنقة من المكان، وليس المكان هو المخنوق بها!..

كان في الأركان آثار زيتٍ في الأرض وعلى الحائط، ولون أسود يغطي أغلب الحوائط، وأعلى الموقد كان متفحمًا تمامًا، ولا يوجد أيُّ أثرٍ لأخته التي أخبرعنها الممرضة.

لكن.. ما هذا؟!! لماذا تضيء الأرض هنا تحت أقدام الفتى؟!

هل كانت تضيء من قبل؟ لا أتذكر!

لكنها الآن تضيء، ونحن خارج المشفى، ولا يوجد بجانبنا أي مريض!

لماذا إذن تضيء خطوات الفتى؟! ما الذي يفعله أكثر من كلّ الذين سبقوه؟!

سار الفتى حتى وصل إلى سريرٍ في زاوية، رفع الملاءات التي وُضِعَت عليه، من تحتها كانت قطع الخشب مرصوصة؛ فرفعها كذلك، أسفلها كانت هناك دراجة ذات لون أحمر وأبيض، أنيقة ونظيفة، تنظر إليها فتشعر أن وجودها شاذًا في هذا المكان! حملها (رضا) وخرج بها، وقبل أن يغادر.. فتح حقيبة كانت موضوعة على السرير وأخرج منها بعض الملابس، حجاب، عباءة، تلفّت خلفه ينظر إلى شيء، مدّ يده

وأخذ مقصًا ثُمَّ عاد للعباءة فقصّ من طرفها جزءًا، ثم جمعهم بحقيبة،، وجد زجاجة صغيرة في الحقيبة، فتحها وشمَّها، وضع منها قطرةً صغيرة على الدراجة، ثُمَّ خرج من الغرفة، كان يسير بخطواتٍ ثقيلة، يحمل الدراجة على كتفه ولا يسير بها على الأرض، لا أفهم حماقته هذه! لماذا لا يسير بجانبها أو يركبها؟!

هذا الفتى!...

كلُّ شيءٍ معه يسير بسرعة، لم يتوقف دقيقة، لم ينظر خلفه مرة، لم يتأثر بأي شيء، والآن يتصرّف بغرابة، والأعجب أن قدمه تضيء!

طال الطريق جدًا، الأتربة بكل مكان، والأصوات كلها منفّرة، ووجوه الناس أجمعهم حَزَانى، يمضي الواحد منهم أمام الآخر فلا يسلّمان لكن شيئًا داخلهما يتلاقى، فقط نظرات الجميع تتعارف فيما بينها؛ فتعانق بعضها، من أين صُبَّ كل هذا الهم على البشر؟! وصل الفتى أمام رجلٍ يجلس عند محلٍ يُعلّق فيه العديد من الدراجات القديمة، وقف الفتى وقال:

أيمكنني أن أخبرك شيئًا يا عم؟ -

نقل الرجل نظره بين الدراجة و(رضا)، ابتسم له وأشار برأسه دلالة الموافقة، فقال الفتى:

- وأنا صغير كنتُ أنظر للسماء وأعتقد أن الطيور تأتي زيارة للأرض كلّ صباح، وأنها تسكن بالجنّة، تبني أعشاشها فوق السحاب.. على الغيوم! يومًا ما وكنت في الرابعة حينها بَنَت حمامة عشَّها على نافذتي التي كنتُ أفتحها وأنام جانبها، فاقتنعتُ جدًا أنها ظنتني سحابة، فسرتُ طوال اليوم على أطراف أصابعي، شعرتُ أني خفيف كريشة.. أتحدّث بلطف، أضحك بهدوء، أغضب في صمت، أحببتُ أن لا أخيّب أملها فيَّ؛ أن أبقى كما ظنتني.. *سحابة*؛ بل صرت أُحبُّ الطائرات لأجلها، وأحلم أن أكون طيارًا يومًا ما،

مضت الأيام يا عمّ، رحلت الحمامة، كبرتُ وتوقفتُ عن التفكير الطفوليّ في كل شيء أخيرًا، وصرتُ لما أنظر للسماء وأرى الطير..

أقول سبحان ربي! ولا أفكّر في شيءٍ آخر، بعدها اشتري لي أبي هذه الدراجة، وهي أجمل دراجة قد تقع عليها عيناك، انظر إلى ألوانها وعجلاتها، رائحتها، اقترب هنا يا عمّ وشمَّها.. حتى هذا مختلف أي دراجة قد تكون رأيتها من قبل، أتعلَم لماذا يا عم؟!

لأن أبي اشتراها من ماله الذي سهر ليالٍ ليأخذه، والمال الحلال يشبه المسك؛ يطهّر كلّ ما يلمسه ويظل فيه لا يزول.

العجيب أن الرجل انحنى بالفعل ليشمّ الدراجة، وبدا أنه وجد الرائحة التي وصفها (رضا)؛ فظهر التأثر واضحًا جدًا على وجهه، سأله الفتى بجدّية:

أتعلَم ماذا حدث بالأمسِ يا عمّ؟ -

حرَّك الرجل رأسه نافيًا، وقد بدأ الاهتمام والحماسة على وجهه يتولّدان شيئًا فشيئًا، فجلس الفتى على الأرض في تأثرٍ واضحٍ، أدركتُ حينها أنه كان يمهد كل هذا ليخبره عن حادثة والديه، قال (رضا):

بالأمس يا عمّ وقفت حمامة على نافذتي وبنت عشها، واليوم وافق أبي أن ألتحق بثانويةٍ عسكرية لأحقق حلمي أن أكون قائدًا طيَّارًا. -

سأله الرجل باهتمام:

طيَّارعن طريق الثانوية العسكرية؟! ما عمرك يا بني؟! -

أربعة عشر عامًا يا عمّ، وأرجوك لا تتنمَّر عليَّ أنتَ أيضًا لأن وجهي أملَس، وقصدتُ في الجيش، أريد أن أكون طيَّارًا في الجيش، هذا هو حلمي. -

حينها كانت الدموع قد بدأت تنزل بالفعل من عينيّ الفتى، فضمَّه الرجل إلى صدره وقال:

كم دفع والدك فيها؟ -

ألف جنيه، وهذه فاتورة شرائها، وكان هذا من عامين، لكنه سيرضى بنفس المبلغ الآن. -

لا أملك إلا ثمانمائة الآن، وأنا لا أحب إبقاء ديون عليّ. -

حسنًا يا عم، مبارك عليك، والآن أخبرني.. أين أجدُ مكانًا يبيع مجسمات طائرات صغيرة؟. -

لمعَت عينا الرجل وهو يرى حلم الفتى يبدأ الآن أمامه، أشار له على طريق حيث يمكنه أن يجد المكان الذي يرجوه، فانطلق الفتى بعد أن قبض المال وترك الدراجة وراءه، لماذا لم يخبره عمَّا حدث لوالديه بدلًا من كل هذا الكذب؟!

لو كان والد هذا الفتى يعلم ما سيفعل ابنه وكيف يتصرَّف، لكان تخلّص منه صغيرًا!! لكن ما كان للآباء أن يتخذوا الأبناء على هواهم، وإنما ينعم بهم الله على من يشاء من خلقهِ إنعامًا، للأسف حزينٌ أنا عليه، كنتُ أظنني سأحزن منه لكن.. شيءٌ فيَّ يُشفِق عليه، أريدُ عتابه لكن رحمتي به أكبر.. فلا أحد يوجهه ويصحح دربه، وحيدٌ هو، يحتاج إلى والديه، وكلاهما يحتاجاه، لا أدري من أين تنبع عاطفةٌ كالأمومة؟ سمعتُ أنها فطرةٌ في الأمهات، وجِبلةٌ خُلِقن عليها، فلماذا أجدُني الآن في هذه الحيرة؟!

أريد ضَمَّ هذا الفتى إليَّ، أستبقيني معه حتى أُصاحبه ما أستطيع، ولا أتركه فينشغل فكري به، لكنه على كل حال لا يسمعني؛ فلا أقدرعلى منعه عن كل ما يُقدِم عليه بتهور، حيرة من فوقها حيرة، وعجزٌ لا يجبره شيء!

وصلنا أمام المشفى، أشعر بقدمه تهدأ قليلًا، مرَّ إلى الداخل ووقف أمام نافذة الحسابات، نظر له الموظف وقال بتعجبٍ:

أنت من جديد!. -

فمدّ (رضا) يده سريعًا إليه وبها المال والورقة التي تحوي بيانات أُمَّه، استلمها الموظف وسأله بطريقةٍ هجومية:

سرقت مَن؟! -

فأجابه (رضا) وهو يهز كتفيه بلا مبالاة وعينٍ ناعسة وصوتٍ ساخر:

عمي قادمٌ بعد ساعة وسيخبرك هو من الذي سرقتُه، الآن أعطني الوصل لأسلمه لهم في العمليات لأن مباراة الكرة ستبدأ على التلفاز بعد قليل وأنا أريد حجز مقعدٍ قريب من الشاشة!. -

من سيلعب؟! -

مصر والسنغال، وأنا أُشجع السنغال!. -

ظهر الاستنكار والغيظ على وجه الموظف لكنه تابع عمله، سلّم الوصل إلى (رضا) وهو يشيح بوجهه في عدم اهتمام:

هيا اذهب من هنا، فمن سيستمع لطفل أحمق مثلك؟!. -

في خطواتٍ كسولاتٍ.. مضى من أمامه، يدٌ في جيبهِ والأخرى تحمل كيسًا صغيرًا به بعض الملابس، ما إن اختفى من أمام موظف الحسابات حتى جرى سريعًا لقسم العمليات، كانت أُمّه جاهزةً ومحجوزة داخل القسم؛ فلم يستطع الدخول لها، أخذوا منه الوصل وسألوه عن المرافق لها بعد العملية؛ فأتى صوته متأكدًا أن أخته ستحضر على الموعد.

الفتى صامتٌ، ساكت، يحيرني فيه الكثير، وصل إلى غرفة والده فدخلها، لا زال الرجل نائمًا، خرج ثانيةً حتى وصل لغرفة التمريض، سألهم:

لماذا أبي لا يزال نائمًا؟!. -

وجاءت إجابتهم أنَّهم أعطوه جرعةً منومةً أخرى ستجعله ينام حتى الصباح، فشكرهم ومضى.

أخذ الحقيبة التي كان أحضرها ودخل إلى الحمام، أمام المرآة وقف يغسل وجهه، ويده وقدمه، ثُمَّ بدأ بخلعِ ملابسه واحدًا وراء آخر، فتح الحقيبة وأخرج ما فيها وارتداها قطعةً قطعةً، ولما انتهى منها جميعًا، لملم ما خلع ووضعه في حقيبته التي معه، بخطواتٍ هادئات خرج من الحمام، يسير بتؤدةٍ، وينظر إلى الأرض، ولا يرفع عينه إلى أحد، أخيرًا وصل إلى باب غرفة العمليات، وقف بمكانه منتظرًا خروج أُمّه، قدمه ثابتة، دماؤه لا تفور، حزنه لا يثور، لا زال يحيرني وخطواته تزداد إضاءةً مرةً بعد مرة، ومِشيةً بعد مشية!...

مضت الساعة وستبقى أُمّه نائمة للصباح، يحرّكون سريرها جميعًا، (رضا) يسير من خلفهم، قدمه تضيء أكثر وأكثر، وخطاه لا زالت على هدوئها، على باب غرفة النساء في قسم الحروق كانت اللافتة مُعلَّقة..

ممنوع الدخول لغير الإناث*..*

عبرت الممرضات وسمحن له بالدخول مع أُمّه، كل الأسِرَّة حوله ستائر، وقف (رضا) بجانب سريرها، التفتت له الممرضة:

حالتها تحتاج مراقبةً طوال الليل، لو ارتفعت درجة حرارتها يجب إبلاغ قسم التمريض فورًا. -

أشار لها برأسه مؤكدًا على فهمها، غادرت الممرضة وبقي هو من ورائها، نظر إليها، رفع يده ليضعها عليها؛ لكن وقبل أن تصل إليها تردد؛ فلا شيء فيها يمكنه إمساكه، الشاش يلفّ كلّ شيء، فانهار جالسًا على الأرض بجانب سريرها، عاد برأسه إلى الخلف؛ فمالت على عمود السرير، فاتكأ على باقي العمود بجسده، نظر لنفسه مرةً أخيرة..

العباءة التي يرتديها تغطي جسده كلّه، والحجاب على رأسه ثابتٌ لم يسقط، والرجولة داخله أبدًا لن تموت، هُنالِك أغمض عينيه ليهدأ قليلًا، وبقيت قدمه بداخلي مضيئةً دونما حراك، ولأول مرّة أشعر بدمعه وهو يسقط من فوقي.. حارقًا ساخنًا صادقًا.

* * *

على عَتَبَةِ غرفة العمليات وقف (رضا)، لا زال يتخفى في زيّ النساء، تلفَّت حوله، كل الأماكن مشغولةٌ والناس فوق الكراسي وتحتها!

بجانب الباب لوحُ زجاج، نقيّ، يُشبه النهر.. تنظر فيه فكأنَّ وجهك يطفو على صفحة الماء، أو يحلِّق في أعالي السماء، اقترب الفتى من اللوح وجلس على الأرضِ أمامه، ضمَّ ركبتيه إلى صدره، وعقد يديه من حولهما، ونظر إلى المرآة، وجهه بيضاوي، ولونه خمريّ، وعينه.. بنيَّة، فمه دقيق، وفي جبهته أثر جرحٍ قديم، على رأسه كان الحجاب لا يزال باقيًا، وعلى جسده العباءة، وفي صدره حقيقته، وفي قدمه.. أنا!..

ومن بين كل الأمور الجامحة التي قد يفعلها شابٌ حينما ينظر لمرآةٍ.. لم يجد (رضا) غير الصمت ليفعله، وإطالة النظر إلى وجهه، لكنّي وحدي الذي كنتُ أرى يده وهي تتحرك كلَّ دقيقة من مكانها إلى جزء منه، ترتعد قدمه؛ فيمدّ يده إليها، يمسكها، ويثبّتها، يرتجف كتفه الأيسر؛ فيرفع يده اليمنى إليه ويمسح عليه ويذكر اسم الله، تحاربه عينه؛ فيكاد الدمع يسَّاقط منها، يضم يده إلى وجهه ويخفي عينه وراءهما، يهمس لنفسه.. لا، تماسك*.*

أودُّ لو أخبره أن لا يفعل، أن يترك نفسه للحدث ولا يحارب شدته ويكتمها، أودُّ لو أخبره أن بإمكانه الانهيار؛ بل من حقه، لكن يعزُّ عليَّ أن أهزم قوته، وأطفيء جمر عزته، وأقول له *استسلم، فعلها غيرك كثيرون*.

الآن امتدت يده حتى وصلَت إلى قلبه، ينتفض، أشعر به، الدماء تمرّ بجسده كلّه على فزعٍ، منذ أن نادوه ليدخلوا أُمَّه إلى العمليات للمرة الثانية وهو يهيئ قلبه للفقد، يؤهله للوحدة، ويستسلم لدورِ التمثيل الذي أتقنه بمهارةٍ حتى الآن!..

كُلَّما فُتِحَ الباب المُوصِل لغرفة العمليات.. اعتدل في جلسته ومدّ يده للحقيبة التي بجانبه، والتي تحمل حاجيات أُمَّه، يتأهب لندائهم له، ليدخل إليها، ويعين على إفاقتها من تخدير العملية، لكن في كل مرة يخيب رجاؤه، هذه المرة كان واثقًا أنهم سينادونه لكن قالت الممرضة:

حالة (إبراهيم إسماعيل) تجهز، حالة (إبراهيم إسماعيل) تجهز*.*

كان يجلِس على أول مقعدٍ في الطريق بعد السلم، كدتُ أقفز من قدم (رضا) إليه، لأسلم عليه وأسأل عن إسماعيل)، لكن سبقت إليَّ يد الله القادرة عليَّ فأخرستني، تتبعته، لا زال بمكانه، الممرضة تنادي اسمه،) وهو على مقعده لا يرد، كأنما نسي أنه هو (إبراهيم بن إسماعيل)،على بُعد خطواتٍ منه كان (إسماعيل) ينظر إلى أبيه، وعند نداء الممرضة للمرة الثالثة، قام يتمشى بهدوءٍ ثُمَّ وقف أمام والده وهتف:

الحاج (إبراهيم)! كيف حالك أيها الحبيب؟ ماذا تفعل هنا؟. -

رفع (إبراهيم) وجهه إليه كأنَّما يُرتّب الكلمات الهاربة من رأسه ويحاول جمعها على شفتيه، نادت الممرضة للمرة الرابعة، هُنالِك رد (إسماعيل) من فوره:

نعم.. هنا، هيا يا حاج ينادون عليك، هيا. -

قام (إبراهيم) يمشي معه مدهوشًا، يسأله..

لماذا ينادون عليَّ؟ هل فعلتُ شيئًا خاطئًا؟!.-

ابتسم له ابنه وقال مازحًا:

مبارك يا حاج.. ستتزوج!. -

ضحك (إبراهيم) بشدة عليه وهو يهمس له:

لا تقل هذا، وحاول أن لا تسمعك زوجتي وإلا ستعلّقك من قدمك، فأنا عندي أجمل زوجة بالدنيا، وأرقّ طفلٍ بالعالم. -

سكتا بعدما وصلا إلى باب غرفة العمليات، قال (إبراهيم) بحزنٍ:

ابني لم يعد يأتي ليراني، أتعرف لماذا لم يعد يأتي؟! -

فأجابه (إسماعيل) سريعًا:

لكن ابنك كان هنا الآن يا حاج، وأنت أرسلته ليحضر لك فرخةً مشويةً لأنك تحبها، ألا تذكر؟!. -

بدا أن (إبراهيم) يحاول حقًا التذكّر؛ لكن لا أمل، نظر لوجه (إسماعيل) الذي يمتلأ لطفًا، فقال بتعجبٍ:

ابني كان هنا حقًا، يا ربي! لقد ظلمته!. -

كان حزينًا جدًا في افتقاده، صادقًا لأبعد الحدود، خائفًا من الوحدة، فقال بثقةٍ:

نعم، نعم، كان هنا، بالطبع كان هنا، وهل ينسى الآباء الأبناء؟! -

ولو رأيتَه لأحببتَه، أخبرني.. ما اسمك يا ولدي؟ وهل أعرفك؟.

كانت الممرضة أمامهما تتعجل خطوات (إبراهيم)، فسكت ابنه عن الرد عليه، ووقف معه، وقبل أن يعبر أبوه من الباب، فتح (إسماعيل) ذراعه ليعانقه، لكن أباه نظر له بتعجبٍ ومسح على كتفه مبتسمًا ومشى!..

عند الباب لوحٌ من زجاج، يحفَظ مرآةً من صمتٍ ووهَن، وداخل المرآة فتاة، وأمام المرآة فتىً، بجانبهم تكوَّم إسماعيل) أرضًا على يمين اللوح، ثُمَّ لم يعد يملك إسكات دمعه بعد الآن.)

* * *

هل تختبر الحياة الناس أم الناس يختبرون بعضهم؟! وما الذي يزيد في الدنيا صعوبتها؟ الناس الذين يحيون فيها، أم هكذا خلقها الله؟!

صعبةٌ.. لا تحلو لأحد إلى الأبد، ولا يدوم لها حالُ!..

فُتِحَ الباب من جديد وخرج منه كُرسيٌّ مُتحرّك يدفعه ممرضٌ، تحرَّك ووقف بجانب مِقعد تجلس عليه العجوز الأولى، أول من انتعلني، كانت (سلمى) على الكرسي ساكتةً، وبجانبها وقف (حسن)، ولو أن الله يقدّر لي الهتاف وأن يكون صوتي مسموعًا.. لصرختُ بهما بكل قوتي..

أيناكِ يا سلمى، أيناكِ؟!**

سألهم الممرض:

نتحرَّك إلى الغرفة؟ -

لكن العجوز وجدت أن (سلمى) تحرّك رأسها نافيةً، ثُمَّ ألحّت عليهما بالمكوث:

من الأمس وبعدما أخذوني من غرفتي وأتوا بي إلى قسم الجراحة وأنا أشعر بالاختناق، رائحة المُخدِر والمطهرات وسوائل التعقيم والتنظيف تملأ أنفي، أرجوك لنتوقف هنا قليلًا، أمام نافذة، بعيدًا عن الغرف المغلقة. -

ربت (حسن) على كتفها مُطمئنًا لها، جذب كرسيها في هدوءٍ وتوجّه به إلى إحدى الزوايا البعيدة والتي فيها نافذةٌ بَحرِيَّة، يدخل منها الهواء بِحرِّية، ثبَّت كرسيّ (سلمى) في مكانه وأحضر له كرسيًا ووضعه بجانبها وجلس..

من مكانها ظلَّت العجوز تنظر إليهم، من خلفها ربتت امرأة سمراء طويلة على كتفها وقالت:

حمدًا لله على سلامة بنتكم، ربنا يشفيها ويعافيها. -

شكرتها العجوز لكن وضَّحت لها:

دعواتك لها، فنحن لا نعرف ما بها، بالأمسِ أجرت المنظار ولم يكتشفوا سرّ ألم معدتها، وبعدما خرجت بساعتين ارتفعت حرارتها فعادوا وأخذوها ليحجزوها هنا حتى يفهموا السبب، واليوم أخرجوها لأنَّ حرارتها عادت لطبيعتها ولا شيء آخر عندهم ليقدموه لها، ولا إجابة يستطيعون تقديمها لي أنا. -

نظرت المرأة السمراء الطويلة إليها بشفقةٍ وعيونها تحمل نظرة تفهمٍ، وقالت:

- المهم أنها اليوم بخير، لا ألم في معدتها، ولا عمليات ستجريها، ولا خوف يملأ صدرك عليها، اليوم فقط، اسعدي باليوم واتركي الغد وقلقه وفحوصاته وعملياته لحين مجيئه.

أعجبني ما قالت المرأة الطويلة، فكأنّما جمعَت حسنات الحاضر وذكّرت العجوز بها، وفرَّقت قلق المستقبل وأخفته عن عيونها.

أعتقد أن لا بأس باغتنام المرء ما بين يديه، وتجاهل ما دون ذلك، ليس عيبًا أن يبحث الإنسان عن السعادة، ويهرب من كل ما يُنغّص عليه حضورها.

التفتت العجوز للمرأة وقالت وهي تشير إلى (سلمى):

- ليتني أستطيع، لكن التي هناك هذه هي قلبي الذي خرج من صدري، وكل ألمها يضرب فيَّ هنا....

قالتها وهي تخبط صدرها بيدها مرارًا، بدأت دموعها تنزل وهي تكمل:

- لستُ أمًا صالحة كما ستظنين، فأنا فعلتُ شيئًا سيئًا جدًا.

بدأ صوت نحيبها يعلو، وكتفها يهتز، وصدرها ينتفض، اقتربت منها المرأة السمراء واحتضنت كتفها بين ذراعيها وحاولت إسكاتها، لكن العجوز أكملت:

- كل الأمهات يدعون بخروج أبنائهن إليهن من المحنة والألم، إلا أنا، ففي يومٍ وبعدما صليتُ الفجر، وكانت يا حبة قلبي راقدةً على الأرض تضع رأسها على قدمي وتحاول النوم، فنظرتُ لها، رقيقة وهادئة، لا تعلم شيئًا عن مشقة الحياة وظلمها، أنا عالمها كله، وأخوتها لا يشعرون بها، كنتُ أعلم أنني لو متُّ؛ فلن يرضى أحد برعايتها، فرفعتُ يدي إلى الله وقلتُ.. *يا رب اجعل يوم رحيل سلمي قبل يومي، فأنا أحتمل الوحدة والعيش من غيرها، أما هي فلن تحتمل وستموت وحيدةً لا أحد معها، فيا رب خذها قبل أن تأخذني ثُم ألحقني بها*.

انتهت من جملتها وزاد البكاء الذي في صدرها وعينها، قالت لها المرأة السمراء مواسية:

- تجلدين نفسك بسبب هذا؟! وهل ربنا لا يعلم ما بصدرك وسبب دعائك ليقبل مثل هذا؟!.

لكن العجوز رفعت رأسها لها وهتفت:

- أنتِ لا تفهمين شيئًا، بعدها بشهور قليلة أتى عريس لها، رآها وأحبها، مع أنها كفيفة لكنه رضيَ بها، كان يتيمًا فجعلها كلَّ حياته، ثُمّ احتاج إخوتها المال فلم أجد إلا أن أبيع شقتي وأوزّع المال بينهم، وقررتُ أن أسكن إيجارًا، فأصرَّ زوجها أن آتي لأقيم معهم، وأحببت الأمر لأبقى قريبةً منها، كان زوجها (حسن) طوال عمره يتمنى أن يعيش وسط أسرة؛ فرحب بي في بيته، وعاملني كأمه، وكانت أسعد الأيام حتى بدأ الألم يأتي (سلمى) كل يومٍ دون توقف، وقال لنا أكثر من طبيب أن ألمها لا تفسير له ولا سبب، عندها تذكرتُ

دعائي الذي دعوت من سنوات، وعلمتُ أنني السبب، دعوت الله أن تموت قبلي، وها هو يخبرني أنه قَبِلَ الدعاء!..

كنتُ أعلم أن دعاء الأمهات يُقبَل، لكن التفكير هكذا سيؤذي العجوز ويُهلِك قلبها، فالأمهات وحدهنَّ من أعطى الله لهن قلوبًا فوق قلوبهن، وحفظها في بطونهن، وربط بينها وبين قلبها الذي في صدرها، حتى إذا ما خرج الطفل منهم من بطنها، كان قلبها الذي في صدره متصلٌ بها، تشعر به، وتحسّ بوجعه وهمّه، أنينه وغمّه، وهذا للأمهات وحدهن دون الآباء، كما خلقهن الله ربهن، لذا من العجيب ظنّها أنَّ الله لم يطلع على خبيئة نفسها يوم الدعاء وأنه سبحانه يعلم خوفها على (سلمى) من البقاء وحدها.

عجيبٌ أن تظنَّ أن الله لا يدري سرَّها!..

* * *

توقفت أقدامٌ قريبة من الزجاج الذي كان بجانب الباب، الحذاء أنيق جدًا، أذكر هذه الأقدام، وهذا النعل، وتلك المشية، أنها الفتاة التي تنقل الأخبار للصحافة!

كانت تقف أمام (رضا) بشيءٍ من الريبة والشك، والفتى لا زال يصمت حاكيًا عن نفسه بين نفسه، تنقل نظرها بين يديه وقدمه ووجهه، رأيتُ فيها جرأةً أن تقف بتلك الطريقة وتنظر دون حياءٍ أو خوف أن يمنعها أحد، بدأ (رضا) ينتبه لقربها الشديد منه، واهتمامها به، سألته:

ما اسمك؟ -

تنحنح وهو يرقق صوته ويقول:

رضا)) -

ولا بأس، فالاسم يصلح للجنسين، فسألته:

مَن الذي ترافقينه هنا؟. -

فأشار لغرفة العمليات وقال:

أمي. -

ووالدكِ؟ -

إنه محجوز بغرفته ونائم. -

فعادت للتقصّي:

من الذي ترافقينه؟ وما سبب الإصابة؟ هل أنتِ السبب؟! -

كان الفتى في حالة شبه إعياء بسبب قلة النوم مع عدم الغذاء، مع كل هذا الفزع الذي بداخله، والوحدة التي تحيط به، نظر لها بتوترٍ، فاقتربت منه وقد ظهرت على وجهها أمارات الفوز، وكأنما وجدت فريستها هذه المرة، وصارت على يقين أنّ وراء (رضا) خبرًا حصريًا.

قام الفتى من مكانه وقلقه منها يزداد، اتجه إلى الحمام ومعه حقيبة الملابس، شيءٌ ما يحدث لي، كأن فيَّ فورة وثورة وغضب وألم، أودُّ لو أمنعها، أخاف... لأول مرة أشعر بالخوف، وليس على نفسي، بل على إنسان!..

دخل إلى الحمام، وهو مختلط، فدخلت وراءه، اقتربت منه، وسألته:

ما الذي تخفينه يا فتاة؟! أخبريني ولن أبلغ عنكِ.. هيا. -

حاول (رضا) التماسك والسكوت وعدم الرد، التفّ مبتعدًا عنها؛ فجذبته من الحجاب الذي على رأسه، ولمّا كان الفتى غير متمرسٍ في ارتدائه؛ فقد انفلتت ربطته سريعًا وسقط من عليه، وقف كلاهما ينظران لبعض، هي نظرتها تزداد جشعًا وسعادة، ونظرة (رضا) تزدا حزنًا ومهانة، اقتربت منه في خطوات ثابتات مختالات، وبدأ هو بالعودة إلى الخلف في خطوات متخلخلات، حتى أنه خلعني من قدمه دون أن يشعر، قالت الفتاة ضاحكة:

والآن ستخبرني ما هو السر وراء تنكرك كفتاة وإلا... -

حينها دخل من الباب (إسماعيل)، نقل نظره بين الاثنين وكان عدم الفهم سيد الموقف تمامًا، سألته الفتاة بغضب:

ماذا تريد أيها الأحمق؟! -

فظهرت على وجه (إسماعيل) ابتسامة فهم، أو لعله على الأقل قد أدرك أن الشرير في هذا المشهد هو الفتاة الأنيقة؛ فالتفت إلى (رضا) وقال بثبات:

ينادون عليك، أمك خرجت. -

نظرت له الفتاة وهتفت بقسوة:

لا تتحرك من مكانك، لم ينته الكلام بيننا. -

فاقترب منها (إسماعيل) وقال بحدة:

بل انتهى. -

أسرع (رضا) بأخذ الحجاب من الأرض ولفّه حول رأسه وضبط هيئته وخرج ملهوفًا إلى أُمّه، دون أن ينتعلني، تَبًّا!..

الله أرجو أن لا ينساني (إسماعيل) كذلك داخل هذا الحمام!

صرخَت الفتاة به:

ما دخلك أنت؟ شكله يؤكد أنه مجرم، وإلا ما كان تنكر في هيئة فتاة. -

فأجابها وهو يحرّك كتفه بلا مبالاة:

لا أدري سببه، ولن أسأله. -

لماذا تدافع عنه؟ -

لستُ أدافع عنه، بل أقف ضدك، فرق كبير بينهما. -

لماذا تقف ضدي؟ -

لأنك قاسيةٌ، لم يهمك جلوسه وانتظاره بالخارج أمام غرفة العمليات، واستمريتِ في إزعاجك له، ولا أعلم - سبب اهتمامك هذا به، لكن أمه حينما تخرج من العمليات يجب أن تراه هو أمامها أول ما ترى، ولن أسمح لك بحرمان الفتى أو أمه من ذلك.

كان يهتف بكلماته الأخيرة في حدَّة وتأثر، وحده يعرف أهمية وجود الابن أمام والديه عند ضعفهما، ووحده كذلك يعرف كيف يعوز الابن ويحتاج والديه وقت ضعفه، هو فقط الذي يمكنه أن يشرح ما يفعله الغياب بالأشخاص، حتى لو كانوا حاضرين، يكفي أنهم يتلفتون بحثًا عنك وأنت واقفٌ أمامهم، ثُمَّ لا يجدونك، لأنهم لا يعرفونك، لتغيب معهم كل الحياة، هذا ما أراه في عين (إسماعيل)، وهذا ما ينهمر منها الآن دون توقف!

نظرَت الفتاة الأنيقة إليه باحتقار واتجهت إلى الباب لتخرج، لكن (إسماعيل)، وقف أمامها وقد لمعت عيناه بمهمةٍ وتجهمت ملامحه:

لن تخرجي حتى أعرف سبب اهتمامك بهذا الفتى؟. -

دفعته بيدها بعيدًا عن الباب، فتحرَّك من أمامه، خرج وصار ظاهرًا أمام كل من يمر في هذا الممر من المشفى، أعلى صوته وهو يسأل:

ماذا أردتِ من هذا الفتى؟. -

انتبهت الفتاة لما يفعله (إسماعيل)، وأنه يحاول إثارة المشاكل ولفت الانتباه إليها، طلبت منه أن يتركها تذهب وينتهي الأمر، لكنه ظلّ واقفًا أمامها يعيد سؤاله، وكلُّ مرةٍ يعلو صوته أكثر من المرة التي قبلها، سألته بغضبٍ:

لماذا تفعل هذا؟ الفتى.. وتركته، ماذا تريد مني بعد؟ -

مَن يتجاسر على مسكين مرة، يتجاسر ألف مرة. -

سألته بتهكّم:

ومن أين عرفت أنه مسكين؟! -

أجابها بثبات:

لأن المساكين يعرفون بعضهم!. -

سكتت الفتاة، لم تستطع إضافة رد عليه، رفع (إسماعيل) عينه إليها وقال:

لا، لا أريد شفقتك، فاحتفظي بها لنفسك، أريد إنسانيتك، أيًا كان ما تفعلينه أو ما تريدينه من هذا الفتى.. - توقفي عنه، لا تكوني أنتِ والدنيا على مسكين!.

أجابته الفتاة وقد انطفأت نظرة الحرب في عينيها:

لم يعد هناك مساكين في الدنيا كما تظن. -

عاد خطوة إلى الخلف وهو يرد عليها:

بل المساكين في كل مكان، أنتِ فقط التي لا تريدين الاعتراف بوجودهم. -

لا أدري أين أنظر لأجدهم!. -

وما حاجتهم إليك لتجدينهم! يكفيهم أن الله يدري. -

قال جملته ومضى...

يا ويلتاه، حتى أنت يا (إسماعيل) نسيتني؟!

وقبل أن يختفي آخر أثر من جسده، ارتد (إسماعيل) ثانيةً إلى الحمام ومرّ من جانب الفتاة، دخل حتى وصل إليَّ.. ثُمَّ رفعني عن الأرض وأخذني معه وغادر.

* * *

وقف (إسماعيل) على بعد خطوات يتلفَّت يمينًا وشمالًا، رأى (رضا) يقف في زاويةٍ ما ينتظر، اقترب منه وبحركةٍ خفيفةٍ من يدهِ على كتفهِ التفت إليه، قال بثباتٍ لكن بصوتٍ خفي:

لم أفعل شيئًا خاطئًا. -

فسأله (إسماعيل):

لماذا تتبعك تلك الفتاة إذن؟! -

لا أدري. -

سكت (إسماعيل) قليلًا وهو ينظر إلى (رضا) الذي لم يتحرك أو يتاثر بمراقبة الشاب له، سأله:

كم عمرك؟ -

أربعة عشر عامًا. -

أين شاربك؟ -

وجهي بطبيعته أملس، فهل ستحاسبني على ذلك؟! -

من المصاب عندكم؟ -

أبي وأمي في حريق. -

وأين كنت؟ -

خارج البيت. -

ومن الذي تسبب في الحريق؟ -

نظر له (رضا) بريبةٍ وسأل بضيق:

من؟! ليس من.. بل ما، ما السبب في الحريق؟ إن كنت ستتهمني كتلك المجنونة بالحمام؛ فوفّر على نفسك الجهد، فأنا كنت في المدرسة حينها. -

تنهّد (إسماعيل) بقلق وسأله:

مَن الذي اكتشف الحريق؟ -

هنالك سكت (رضا) والتمعَت عيناه، أشاح بوجهه ليخفي هذا التفلّت من ضعف، تنحنح لحظات ثُمَّ أجاب:

أنا، أنا من اكتشفهم. -

عاد للسكوت، رفع يده إلى عينيه فمسح ماءً متجمِّدا فيهما، قال بتوجعٍ مكتوم:

عدتُ آخر اليوم ووضعتُ يدي على الباب.. كان ساخنًا، فتحتُه سريعًا، فوجدتهما ملقيان على الأرض، والنار تأكل الموقد والحائط وملابسهما، كانت أمي أقرب للموقد منه، لذا إصابتها أشد. -

باهتمامٍ سأل (إسماعيل):

ألم يشعر بكم أحدٌ من الجيران؟. -

لا، بيتنا مدفون بين عمارتين، مدخله يكاد يكون تحت الأرض تقريبًا، والنافذة كانت مغلقةً، لذا لم تستطع - الرائحة أن تخرج، ولا والداي أن يصرخا.

سأل (إسماعيل) بحنوٍ:

وماذا فعلتَ أنت؟ -

بدا أن (رضا) يتألم من الذكرى، قال بصوتٍ يختنق من البكاء:

لما دخلتُ أطفأت النار ببعض الملابس المبللة، ثُمَّ أحضرتُ ملاءتين ووضعتهما، أخرجتهما واحدًا تلو - الآخر بعيدًا عن البيت، لأن أية مساعدة لن تستطيع أبدًا الوصول إلى البيت.

رفع حينها (رضا) جزءًا من حجابه الذي يخفي حقيقته، ومسح دموعه التي يمسكها؛ حتى لا تفر منه إلى مُحدثه!

سأله (إسماعيل) سؤاله الأخير:

من أين أحضرت المال لإجراء العملية؟. -

رفع (رضا) رأسه باعتداد وأجابه:

مالنا الخاص، لا نأخذ أبدًا مال الحرام. -

لمعَت عينا (إسماعيل) وهو ينظر إلى (رضا)، فتًى بثياب فتاة، رجلٌ شَبَّ قبل أوانه، وحملٌ كالجبال، فقال:

عظيمٌ أنت يا رجل!. -

أنار وجه (رضا) من كلمته، أضاف (إسماعيل):

لولا أنك ترتدي ملابس الفتيات لكنتُ عانقتك وسرنا معًا، لو كان والداك هنا وعلِما ما فعلت؛ لامتلأ - كلاهما فخرًا بك.

عادت الحياة لوجه (رضا) وهو يسمع كلمات (إسماعيل)، ثُمَّ قال الأخير:

من اليوم لا تحمل همَّ أي شيء، فأنا معك... -

أتى صوتٌ عالٍ من بعيد يسأل عن مرافق (أم رضا)، فاستأذن الفتى سريعًا ليذهب إليهم ويستقبل أمه، سلَّم عليه (إسماعيل) بعدما تعاهدا على الصُحبة.

* * *

مرّت دقائق حتى عاد (إسماعيل) جالسًا أمام المرآة التي كانت بجوار باب غرفة العمليات، وضع يده على وجهه، يهمس بصوتٍ خفيض إلى نفسه.. *سيتذكرني، سيأتي يوم ويتذكرني، سيفعل بإذن الله*..

ظلّ يردد *سيفعل، سيفعل، سيفعل....* .

وفجأة قال.. *وماذا لو لم يفعل؟!*.

حينها أغمض عينه ولفّ يده حول جسده كأنما أصابته رجفة برد، أعلمُ جيدًا أن البرد هناك في منتصف قلبه، فبمَ سيفيده دفء العالم كله الآن؟!

من حولي الأرض كلها تضيء، خطوات البعض كأنما تحلِّق فوق السحاب، والبعض كأنما يمشون في باطن الأرض من ظلامها، لا زلتُ أحاول فهم هذه الخطوات، في آخر الممر كان ثلاثتهم قادمين، رجلان وامرأة، الرجلان كأنما يجرّان المرأة جرًّا، خطاهما تضيء ضوءًا خافتًا، يزداد كلما اقتربا، أما المرأة فخطواتها تزداد ظلامًا!..

اقتربا حتى وقفا بمكانٍ ليس ببعيد، ثلاثتهم أمام العجوز، رفعَت رأسها إليهم، كان الأمل يولد على وجهها من جديد، فلا شيء أحب للأم من أن ترى صغارها قد اجتمعوا على قلبٍ واحد، مهما بدر منهم.. تعفو، وتأمل وتنتظر، قال رجلٌ من أولادها بتوسلٍ:

أرجوكِ سامحيها، اغفري كلماتها، ليس لنا غيرك وليس لك غيرنا. -

من نظرة ابنتها وظلام خطواتها وسواد وجهها.. يُعرَف أنها جاءت مُكرَهة، ولعلّ أخوتها من أحضروها، وهكذا الباطل يبدأ كعاصفةٍ وكلّما اجتمع عليه الناس وأيدوه ازداد وتبجّح ودمّر كل شيء، ولما ينفضوا عنه وينصرفوا من حوله يعود ريحًا ضعيفةً لا تملك أن تحرك ريشة..

نظرَت لهم العجوز بشيءٍ من العتاب وكثير من الرضا، قالت بحنوٍ:

لا أفعل ما أفعل لأنتظر شيئًا منكم، أنتم منّي، أنتم أحبتي، أنتم كل ما أتمناه من الدنيا. -

قالت ابنتها بخجل:

الحقيقة أني لمّا فكرتُ مع نفسي، أحسستُ أني ظلمتكِ، لكن أرجوكِ تفهمي موقفي، كنّا صغارًا.. فكيف لنا أن ندري كل هذه الأفعال منكِ ومن والدنا دون أن تخبرينا؟ -

مدت العجوز يدها إلى وجه ابنتها، جذبتها إليها وقالت بحنوٍ صادق:

لا عليكِ، لا أحتاج منكِ هذا، يكفي أنَّ الله يدري، كل ما أحتاجه أن ترحموا هذه. -

قالتها وهي تشير إلى (سلمى) التي لا زالت تجلس أمام النافذة وصوت ضحكها مع (حسن) يتنقل في المكان، أكملت العجوز:

هذه لم ترَ شيئًا من حلاوة الدنيا التي تعرفون، لم تجرّبها، ولن تستطيع أن تفعل، أنتم عالمها الوحيد؛ فلا - تتركوها وحيدة.

* * *

خرج سريرٌ من الباب هذه المرة، وبجانبه تخطو القدم التي لم أرَ في مثل ضوئها، كان (رضا) لا يزال في ملابسه النسائية، يرافق سرير أمه الذي كان مرتفعًا ومائلًا إلى الأمام بكيفيةٍ جعلتني أرى وجهها، عيونها لا تزال مغمضةً، ويدها السليمة بجانبها، فمدّ (رضا) يدهُ ببطءٍ وخوف حتى أمسكها، الأصابع على الأصابع، لعلّ أمه أحسَّت به؛ فقد ضمَّت أصابعه كذلك، ارتجفت يد الفتى بمجرّد أن ضمّتها أمه، ظهرت الارتعادة وهي تصل حتى كتفه ومنها إلى وجهه؛ فاحمرَّ، فتحت أُمَّه عيونها لتنظر إليه....

فلمَّا رأته همسَت همسًا خفيفًا.. *هذا ابني الذي ربيتُ!*.

وشدَّت على يديه أكثر وأكثر؛ عندها اعتدل (رضا) في مشيته، ونصب قامته، ورفع رأسه، وكل الماء المالح الذي يصرخ في عينيه ليسيل منه ويفضح خوفه ووحدته وفقره، صار ماءً طيبًا عذبًا، يهبط حتى يصل لقلبه فيكون سُقيا رحمة لا سُقيا عذاب.

* * *

الآن الآن فهمتُ، بل تذكُّرت جملةً سمعتُها يومًا..

المُخلِصَ.. الذي يكتم حسناته كما يكتم سيئاته

الآن عرفتُ لمن تضيء الأرض وتنير الخطوات، لكل من أخلص في فعله، زيارته، عيادته، مودَّته، محبته، تضحيته، حتى ضحكته، سبحان الملك.. جعل للمخلصين نورًا يُعرفون به!

في ركنٍ بعيد وقفت طفلةٌ صغيرة تضحك وتراقبني، تأخذ خطواتها إليَّ تارةً وتبتعد تارة، وأمامي وقف إسماعيل) يرجو الرجل الذي يقف حارسًا على باب غرفة العمليات أن يطلب منه طلبًا، ظلّ يتوسّل إليه أن) يسمعه، والرجل يرفض حتى مجرّد الكلام والوقوف، أخرج حينها (إسماعيل) مالًا وأقسم له أنه آخر ما يملك، فقط يحتاج طلبًا صغيرًا، نظر له الرجل بشكٍّ وسأله عن طلبه، فقال:

أريد الدخول لأبي. -

فأجابه الرجل:

ممنوع.-

ظهر الضيق على وجهه ثُمّ هتَف:

حسنًا، حسنًا، لن أدخل، ما رأيك لو أخرجتم أبي قبل أن يفيق تمامًا؟! -

عادت نظرات الرجل تنزل على وجه (إسماعيل)، وهي أكثر شكًّا، فتنهد الأخير وتوسّله أن يفعل؛ فتركه الرجل وردَّ عليه ماله وتركه ودخل إلى غرفة العمليات وأغلق الباب، ظلّ ينادى عليه:

والله لا أريد إلا احتضانه، فقط اشتقت لرائحته، أرجوك أخرجه وهو لم يفق بعد.. أرجوك!. -

كل النداءات والتوسلات تلاشت في الهواء، عاد (إسماعيل) خاوي الأمل فارغ الفؤاد، جلس في مكانه، لو أنَّ الله خلق لي دموعًا لكنتُ بذلتها على هذا الشاب الآن، اقتربت الطفلة الصغيرة منِّي ويبدو أن لوني قد جذبها؛ فأحبَت أن تلعَب بي، وكأنّ هذا هو التدهور الطبيعي لتنقلاتي مؤخرًا!..

أتى من الخلف صوتٌ عالٍ.. أعرفه جيدًا هذا الصراخ، ظلّ الصوت يقترب ويقترب:

قلتُ لك لا أريد أي شيء من الصندوق، فقط الحذاء. -

وما دمتَ ستعود لتأخذ الحذاء.. فلماذا تبرَّعت به من الأساس؟! -

لم أفعل، زميلي الغبي أراد أن يصنع بي خدعةً، فأمسك صندوق التبرعات وأخذ أفخم حذاءٍ في بيتي - ووضعه فيه.

تنحنح الرجل الذي يرافقه وهو يسأله:

اعذرني في سؤالي.. لكن ألا تستطيع شراء غيره؟!. -

تنفس الشاب بغضب وهو يصرخ:

لا يمكن، لأنَّ الغبي أخذ حذاء أبي، وليس حذائي، ويجب أن أعيده وإلا لن يغفر لي أبدًا. -

إذن لم يتم التخلّص منّي؟! لم يحاولوا إبعادي أو طردي، كان فقط سوء تصرّف من شاب غنيٍّ أحمق!..

الفتاة الصغيرة لا تزال تقلّبني بين يديها يمينا وشمالًا، والشاب يزداد صراخه مع أنه لو نظر تحت قدميه.. لرآني!..

ما هذا الشعور الغريب؟! شيء ما يؤثّر في بشدة! ما الذي يحدث؟!

هتفت الفتاة بين يدي بسعادة:

انظري يا أمي ماذا وجدت؟!*..*

قالتها وألقتني من يدها سريعًا وجرت حيث أُمّها لتريها المسمار الذي معها!

ماذا؟!... المسمار!..

الفتاة أخرجت منّي المسمار!..

أخيرًا فعلها أحدهم، الآن نلتُ حريتي.. الآن....

الأن أستطيع أن أُظلم الضوء من حولي قليلًا فلا يراني أحد، يمكنني أخيرًا أن أبتعد عن...

ما هذا الذي يجري لي؟!

اقترب الشاب الغنيّ منّي، لا أدري لماذا فعلتُ هذا.. لكني أظلمتُ نفسي وأخفيتها عنه!..

لماذا؟! لا أدري! لا أريد الذهاب معه، لا أريد الابتعاد عن هنا، بدأت خطوات الشاب تبتعد، ومعها يذهب حلمي في العودة لعالمي المثالي، لكن هنا عالمٌ إنساني، أكاد أقسم أن الإنسانية معنى ينتقل إلى الجماد وقد يغيب عن قلب الإنسان وجوارحه، أكاد أصرخ أنَّ فيَّ إنسانية، أريد أن أبقى لعلّي أكون نعلًا لفتىً رجلًا كـ رضا) أو في قدمي شابٍ صابر وبارٍ كـ (إسماعيل)، أريد أن أبقى..)

فُتِحَ الباب للمرة الأخيرة، وخرج منه كرسيٌ متحرك يجلس عليه (إبراهيم)، فهبَّ (إسماعيل) من مكانه وهو يخفي دمعه سريعًا، استقبل والده بابتسامةٍ مُتزنة، ومد يده ليسلّم عليه ويسنده وقال بأدب:

حمدا لله على سلامتك يا حاج!. -

نظر له والده بتعجُّب كالعادة ثُمَّ قال بصوتٍ ضعيف:

إسماعيل) يا ولدي، اسندني على ذراعك يا حبيب!.) -

هنا سقط (إسماعيل) تحت قدميه ودموعه تسبقه إليه، يُقبّله ويعانقه ويضمّه ويشمّه ويهتف:

بل أحملك.. ما رأيك؟ -

أحملك.. والله أحملك، أبي تعال؛ فأحملك!.

تمَّت بحمد الله

محبوبة محمد سلامة